إشراقات أدبية

قصص قصيرة

١

شوارع تنام من العاشرة

أحمد محمد حميده

دراسة
د. سيد حامد النساج



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى : محمد قطب

افتتاحية

هذه هي السلسلة الجديدة « اشراقات أدبية » التى تصدرها الهيئة العامة للكتاب لكى تسهم فى انعاش واثراء الحركة الأدبية فى مصر ، وهذا هو عددها الأول يصدر فى شهر اكتوبر المجيد لتواكب الانتصار الوطنى فى معركة الحياة ، ومعركة التجـدد والابداع معا ، وان شاء الله سوف تلعب هذه السلسله دورهـا كاملا فى اتاحة فرص النشر لكل المواهب المبدعة من أدباء مصر فى الأقاليم من كافة الأجيال والاتجاهات مع دفع الظلم عنهم وعن غيرهم من أسماء أدبية متميزة افتقدت فرص النشر العادلة .

وبرغم اهتمام السلسلة الأول بهؤلاء الأدباء المبـــدعين فى أقاليم مصر فانها لن تبخل بالنشر على كل المواهب الشابة الجديدة حتى تسهم هذه السلسلة بحق فى خلق المناخ الملائم لكى تزدهر حركة الابداع فى مصر ، ونحن نؤكد هذا لكى يعلم الجميع والشباب فى مصر بصفة خاصة أن الباب مفتوح بكل سعته أمام المواهب المبدعة الحقيقية بلا أى اعتبار الا للجودة أو القيمة ، فكل الزهور من حقها أن تتفتح لكى تشكل ملامح وخصائص الوجه الحضارى لمصر .

هذا وقد راعينا أن يكون الكتاب الذى تصدره هذه السلسلة سواء أكان قصة أو رواية أو شعرا .. الخ - مصحوبا بدراســة نقدية عنه بقلم أحد النقاد ، وذلك حتى يعود لحركة النقـــد دورها فى المتابعة والتقييم والتأصيل والاكتشاف ، وقد استهدفت السلسلة ذلك حتى تتلاحم الحركة الابداعية بالحركة النقـــدية استشرافا للمستوى الذى ينبغى أن تصل اليه حـــركة الابداع والفكر فى مصر .

أ.د. سمير سرحان

وفـــاء القيـــظ

انطلقت السيارة وسط الصحراء ‥ أكلت عجلاتها أسفلت الطريق ‥ بين ذراعي اليسرى والابط ‥ أحتضن كتف حبيبتي ‥ تداخلت في الرأس أغنيات المسجل بصوته المرتفع ‥ في قلبي حبيبتي ‥ لم يبال لسرعة الســائق الهائم مع الأغنيــات رأســه المنكوش ‥ مرددا مقاطع كاملة مع الاغنية غريبة الوقع ‥ اختلط كلامه ٠

كان الشوق بالقلب عارما ‥ بالرغم من بدنها الملاصق لى ‥ ترسم فوق صحراء العامرية مكانا للاقامة والحب ‥ قليلا ونفترق ‥ عند مدخل المدينة سيودع كل منا صاحبه عائدا الى بيته ‥ ويحلم ‥ يركن القلب الى الوحدة ‥ يجتر ذكرى هذه اللحظــات الحلوة ‥ ينتظر لقاء الأحد المبهج من كل أسبوع ‥ ضغطت يدى ذراعها النحيلة ‥ تداخلت في صدرى ‥ قطة استكانت في وداعة ‥ قلت والعربة تتهادى تخترق الريح المخنوق :

ـ أحبك ‥ سنكون معا ‥ نفتح بيتا في هذا المكان البعيد ٠

نظرت في عيني ‥ في العين كانت ‥ والسائق في المرآة ‥ ينظر ‥ لذت بالصمت الخجول ‥ همست في أذنها القريبة مني :

ـ لكن الخوف يقتلني ٠٠ حين نفترق أحس بأنني لن أراك ٠
نظرت في عيني بوله وعتاب ٠٠ قالت في همس :

ـ لا تخف ٠٠ سنوات خمس قد مرت ٠٠ هل افترقت عنك ؟

هامت عيناي في الصحراء البعيدة ٠٠ والريح القادمة يتجلد ٠

قلت :

ـ لحظات الحب قليلة ٠

افترش شعرها الأسود صدري ٠٠ قالت :

ـ تلك اللحظات القليلة لم تبدأ بعد ٠

فركت أصابعي خصلات شعرها ٠٠ قلت :

ـ لكنني عشتها منذ عرفتك ٠٠ وأخاف منها ٠

ـ ولم تخاف ؟

ـ سوف تتركيني ذات يوم ٠

دغدغت جانبي فانتشى القلب في وضحكت ٠٠ قالت :

ـ اذن لا تفكر بالزواج مني ؟

ضممت الكتف لي ٠٠ ذابت ٠٠ همست :

ـ أنت حبيبتي ٠٠ وتعلمين أنني أعد نفسي لأكون جديرا بك ٠

ـ أنت حبيبي ٠٠ وسوف تظل حبيبي ٠

ـ ألن يأخذك مني أحد ؟

ـ من سيأخذك مني ؟

ـ رجل يملك سعادتك ؟

ـ يا حبيبي ٠٠ السعادة أني أحبك ٠

ـ يموت الحب بدون المال ٠

ـ والمال بدون الحب ؟

ـ ندم .

دعكت أذنى وقالت :

ـ نستطيع أن نقيم للحب بيوتا .

فى ذاكرتى وقوفنا امام الصحراء الواسعة .. نشاهد قطع الأرض المباعة .. طائرين تحت الريح المخنوقة ..

أقمنا فى الخلاء .. بيتا .. زرعنـا حولنا حديقة ورد .. وملعبا لأطفال الغد القادمين .. نستحلب الأمنيات .. لاحت فى وجه حبيبتى الأمنيات .

تراقصت فى نمنمة القسمات .

كانت الشمس تزاورنا عبر النافذة فى لحظـات خاطفـة .. قالت :

ـ لكن الطريق طويل جدا .

ـ سيكون لنا عـربة فارهـة نقطع بها الطريق الى المـدينة .. ستمتلىء هذه المنطقة بالخلق .. سوف يأتون الينا من كـل صوب .

تنهدت .. لفحت خدى الأنفاس .. قالت :

ـ أريد منك طفلا .

ـ طفلا واحدا ؟ أطفالا يملأون البيت .

تخلل العرق تجعدات ابتسامة خجلى .. قال :

ـ حينئذ .. يجب أن تتركى العمل .

ـ وكيف تسدد الأقساط يا حبيبي ؟

ـ ذلك يأتي حله بعد الزواج ·

كانت العربة تتهادى ·· توقفت ·· تشرب شريط دخاني ·· تصاعد متكاثفا من مقدمة الغطاء الأمامي ·

زمجر السائق وبصق على عجلة القيادة فى غيظ ·· أغلق المسجل ·· سب ولعن العربة وأصحابها وهبط قائلا :

ـ البنزين والماء مرة واحدة ·

قال الرجل الذى فى الكرسى الامامى ·· نائما كان :

ـ ضرورى نسى تموين سيارته ·

ـ يا جماعة ·· المستعجل يتفضل ·· سأنتظر هنا حتى يبعث الله الفرج ··

تطلعت فى وجهى ·· انفصلت عن صدرى ·· قالت عيناها ·· أهلها يتساءلون عن تأخرها الزائد ·· حين هبطنا من السيارة وتوقفنا تحت الشمس ·· داخلنى قلق مبهم قادم من حولنا الصحراء ·

طويلة هى المسافة بين العامرية والاسكندرية ولا يمكن سيرها والنهار ذاهب · انعكست الشمس على زجاج العربة والعيون ·· أجفلت ·· ضحكنا وبدأنا فى تحريك الأقدام نحو الطريق المقبل وبخار الأسفلت ·· يتلوى ·· يخفى ما يمكن رؤيته من أطراف المدينة النائية ·

أشارت أيدينا للعربات المارقة ·· تعكس الشمس فى العيون ·· بلا جدوى ·· قلت :

ـ تعبت ؟

والعرق فى تجعدات الابتسامة ·

ـ أنت تعبت ؟

تأبطت ذراعها المندى ·

ـ ما دمت معك ·· لا أحس تعبا ·

ـ وأيضا مثلك أنا ··

ـ سيأتى ذلك اليوم الذى نرتاح فيه ويلف جسدينا بيت صغير ·

بخار الأرض مرذول ·· قالت :

ـ متى ؟

هزت رأسها ونظرت الى الخلف ·· قلت :

ـ قريبا·· ان شاء الله ·· ولو كوخ صغير ·

طوق العرق التجعدات ونصف ابتسامة ··

ـ حديثك يفرحنى ·

ـ ستفرح كثيرا بعد ذلك ·· الصبر طويل ·

ـ أشعر بأننى سأحبك من جديد ·

ـ ليتك تكونين لى دائما ·

ـ أنا معك حتى الموت ·

وكتفها النحيل تحت ذراعى ·· أملكه ·· وألسنة الشمس تتسلط ·

ـ سوف نموت معا ·

سرنا وطبقة من الحديد الساخن فوق رأسينا ·

ـ ألن يرفضنى أهلك ؟

مرقت عربة ·· هز ريحها طرف فستانها ·· هزت قدميها ·· تنفض عنهما التعب اعتدلت ·· نظرت الى الخلف فى ضجر ·· والبصر يحجبه البخار ·· قالت :

ـ لقد بلغت السادسة والعشرين الآن ·

والقيظ ·· قيظ ·· واصلت :

ـ يعنى أعرف مصلحة نفسى ·

ـ انت تعبت ·· يجب أن ننتظر ·

ـ لامست قدميها فى مقت ··

ـ انتظرنا طويلا ··

توقفت ·· جففت عرقا فى العنق ·· رأيت شـق النهـدين فأجفلت ·· قلت :

ـ ننتظر قليلا ·

ـ الانتظار لن يفيد ·· المشى أفضل ·

الأقدام التعبة تتباطأ ·

تاهت فى صحراء العيون ·· نظرت الى الخلف وتوقفت ·

ـ سأنتظرك ·

ـ سيطول انتظارك ·

نظرت فى عينى ·· لم أكن هناك ·· سقطت الشـمس فى العينين ·· قالت :

ـ قرش منك وقرش منى وتقرب المسافة قريبا ٠

ـ ليتنى أمتلك مالا ٠٠ لأخذتك الآن ٠٠ اننى أحبك يا وفاء ٠

ـ وأنا أيضا ٠

تأففت فى ضيق ٠

ـ لا تتركينى ٠

نظرت حولها ٠٠ قالت :

ـ وان تركتك ؟

ـ لن أتركك أنا ٠

تمهلت قدماها ٠٠ باعد الحر وسخونة الأبدان ما بين جسدينا ٠٠ تشابكت الأصابع فى حنان فاتر ٠٠ ضغط أصابعها الرقيقة ٠٠ كثيرا ما تألمت فى ضغط أصابعى ٠٠ فأرقق يدى ٠٠ قلت :

ـ كل شىء يمكن أن يكون ٠٠ ما دام الدفء فى القلوب ٠

ـ نعم ٠

ـ كل أحلام الماضى والآتى يمكن تحقيقها ما دمت معى ٠

ـ نفس احساسى ٠

انفصلت أصابعها عن يدى وأخرجت منديلا ٠٠ جففت عرق الوجه ٠٠ لوحت بالمنديل امام عينيها ٠٠ توقفت والتفتت نحـو الطريق الممتد خلفنا والغائر فى بطن الصحراء بوحشية نظـرت لعربة تقترب بعين راجية ٠ ألقت العربة صهدها اللافح ومرقت ٠٠ تأسفت فى ضجر ٠

ـ لن آتى بك مرة أخرى لهذا المكان ٠

تنهدت ٠٠ نظرت الى وامتطت الشفة السفلى وقالت :

ـ المهم ترجع الآن ٠
ـ أنت تعبت ؟
ـ أبدا ٠٠ لكن ٠٠ المشوار ٠
ـ فقط ٠٠ أردت أن أريك القطعة التى ٠٠٠٠
ـ لا تهتم ٠٠ فقط أريد الرجوع ٠
ـ كان من الممكن أن نظل فى المدينة ٠
ـ أهلك قلقون عليك ؟
ـ أبدا ٠٠ يعنى ٠٠ هم يثقون فى ٠

خملت الرءوس فى العربات المكتظة ٠٠ مارقة ٠

ـ اننى أحبك ٠٠ سنعوض كل ما فات ٠

نفخت فى الهواء الساخن الثقيل ٠٠ واحتقن بالدم قلبى ٠٠ تعبت فى الحذاء قدماى ٠

شعور بالتساقط يجابه رأسى ٠

ـ أستطيع حملك ٠

ضحكت نصف ضحكة ٠

ـ لن تقدر على حملى أكثر من نصف ساعة ٠٠ انت تعب ٠
ـ أستطيع بالرغم من أنك فى قلبى ٠

نظرت فى عينى العرقانة ٠٠ جففت عنقها ٠

ـ أتستطيع أن تصارحنى بما أكلته اليوم ؟

ضحكت وأخفيت تذكرى والألم الذى داخلنى ٠٠ اننى فطرت فولا وخيارا ولم أتغد بالرغم من انطماس النهار ٠٠ سقطت

فى تفاهتى وشعورى العميق بالذنب .. تمنيت لو انشق الأسفلت وابتعلنى فهى معى منذ الصباح ولم تتغد مثلى .

ـ مالك ؟

ـ لا شىء ؟

ـ أغضبت منى ؟

ـ أنا لا أغضب منك .

ـ لماذا سكت ؟

ـ فكرت فيك .

رفعت حقيبتها تحمى الرأس من القيظ .. مرقت عربة ..

ـ لا تهتم جدا بما أقول .

ـ ولم ؟ أنت لى وأنت من أحب .. وأنا لك .

ـ طبعا .

ـ أطلب من الله ألا نفترق .

ـ لو افترقنا سوف نلتقى .

حين تعبت الذراع المرفوعة بالحقيبة بدلتها بالذراع الأخرى .

ـ أهلك يسألون عنى ؟

ـ سألونى مرة .

ـ ماذا قلت ؟

ـ يعرفون كل شىء عنك .

ـ ألم يمنعوك عنى ؟

ـ أهلى يثقون بى .. قلت لك قبلا .

توقفنا تماما عن التقدم ‥ الغطاء الحديدى المنصهر يتقارب ٠

ــ لا تغضبى منى ‥ اننى أحبك وأخاف عليك ٠

ــ أنا لا أغضب منك ٠

قبلا ‥ تأملت البيوت التى فى المدينة وقالت لو كانت لنا فى هذه البيوت شقة ‥

لو كانوا يسمحون بالنوم فى الحدائق وممارسة الحياة تحت كل الظروف ٠

ــ والطبقة الحديد المحمية تتقارب ٠

ــ أنت تسكت كثيرا ٠

ــ مازال الطريق طويلا وأنت تعبت ٠

فى الضحكة المأكولة مقت ‥ الخلف يمتـد ‥ يتوالـد من الأرض لهب ٠

ــ أنت أيضا تعبت ٠

الريح المخنوقة يتفتق عنها صهد ساخن ‥ سكن ٠

من الخلف ‥ من بين بخار الأسفلت ‥ اقتربت العربة التى تعطلت هناك ٠

أشارت لها برجاء ٠

توقفت العربة ‥ أطل رأس السائق ‥ قال :

ــ كثيرون هم أولاد الحلال ‥ تفضلى يا هانم ٠

غمرتها بهجة ‥ تهللت فرحا ‥ استدارت الى الناحية الأخرى وركبت ٠

كان بالعربة راكبان آخران ·· حين اقتربت قال السائق :

ـ آسف فقط هى ·· هناك عربة أخرى ستأتى من خلفى ··

نظرت فى عينى والعربة تبارحنى والمكان والطبقة المنصهرة تحت القيظ ·

١٩٨٢

★★★

الصـــندوق

ـ ملكا ؟! انني وجدته على الرصيف بالخارج ٠٠ صندوق قديم فارغ ٠٠ لا ينفع ولا يشفع ٠٠

ـ هذا اعتراف منك بأنك سرقته ؟

ـ أنا فعلا كنت أريده ٠٠ ولكنني لم أسرقه ٠

ـ يقول شهود العيان الذين شاهدوك في الطريق انك كنت تخبئه خلف رأسك ٠

ـ كيف أحمـل صـندوقا بحجم هـذه الغرفة وأخبئه خلف رأسي ٠٠ ؟

ـ انك كنت مخبئا رأسك خلفه ؟

ـ جائز ٠٠ ربما كنت خجلا من عيون الناس ٠٠ كانوا ينظرون الى وكأنني أحمل نعشي فوق كتفي ٠٠ ثم انهم متعودون على القاء مثل هذه الصناديق بعد تفريغها من المعدات في الطريق العام ٠٠ ولم يفكر أحدهم في وضعها في مكان ما ٠٠ لا لن يسعها أي مكان من هذه المخازن ٠٠ كانوا يلقون بها على أكوام القمامة ٠٠ أو يأخذهـا

بعضهم ليفرشها فى الممرات ليمشون عليها بدلا من المشى على طين الشتاء ·

ـ يمشون عليها · داخل المصلحة ؟ أم خارج المصلحة ؟

ـ يمشون عليها بين باب المصلحة والطريق العام ·

ـ يعنى كله تابع للمصلحة ·· يعنى أنت تعرف أن ذلك يخص المصلحة ؟

ومع ذلك ·· وبالرغم من ذلك حملته وسرت به فى الطريق العام ؟

ـ قلت لحضرتك اننى كنت أريده ·

ـ ولم تريده ؟ ·· لتضع فيه كحك العيد ·· أم لحفظ باقى المسروقات ؟

ـ صدقنى ·· حرام هذا الذى تفعله بى ·

ـ أنا لم أفعل بك شيئا ·· بل القانون الذى يفعل ·

منذ قرع الريح صفائحى المرصوصة وبابى ·· حيانى بتحية المساء الراعدة ·· غمد بصدور أولادى مسامير برده القارس وانشقت الضلوع الواهنة عن سعلات الحشرجة الجافة راقبتهم · كانوا يفرغون الصناديق وكنت أقف على مبعدة منهم ·· أبصرهم وهم يحملـــون المعدات ·· يذهبون بها الى داخل المخازن ·· بعضها كنت أراهـا تدخل ·· وبعضها أراها تخرج ·· فأغض بصرى وأستغفر الله فى سرى ·· وكأننى لم أر شيئا ·· وأنا مالى ؟ فكرت فى أخذه ·· ضمن هؤلاء الذين يأخذون الصناديق ·· اضطربت فعلا لاننى سآخذ شيئا لا أملكه ·· وأنه ليس من حقى ·· وأننى يجب ألا آخذه ·· ولكننى قلت فى نفسى ربما يلقون بها ·· تركوها فوق الرصيف بلا صاحب ·· أيوجد لكل هذه الصناديق أصحاب ؟ أين هم ؟ ولو

كانوا ·· وسألتهم واحدا ·· أيمكن أن يمنحوك اياه ؟ طبعا لن يسمحوا لك ·

كنت أرى بعض زملائى وهم يمزقون عوارض الصناديق ويضعونها فى أرضية عربات النقل لتختفى بعد ذلك بعيدا ·

ثقيلا كان رأس الشاويش ·· همهم ·

ـ هيه ·· هيه ·

·· والريح ·· كان يعوى كذئب جائع بالخارج ·· يتخذ من ثقوب الكوخ ·· وآذان الناس منافذ ليصفر فيها ·· ارتعد ·· ويرتجف الصغار وأمهم ·

رفع الشاويش رأسه الثقيل ·· زعق بصوت زالت عنه الحشرجة ·

ـ ما لنا نحن وكل ما تقول ؟ البلاغ يقول ان الساعى الزفت فلان ابن الزفت فلان ·· قام بسرقة صندوق كرتونى ·· صنع بالخارج · وحمله وتوجه به الى مسكنه وشوهد وهو يخترق به الضواحى ·· أهذا صحيح أم لا ·· ؟

·· حين ولجت الشمس من غيمات السماء الملبدة المنذرة بالمطر ·· توقفت ضاحكة أبصرت الأم فوق قمة الجبل ·· تضع متاع كوخها الصغير فى عين الشمس الضاحكة وهى تتطلع اليها بحنو وتوسل أن تبقى ضاحكة فيما تبقى من نهار ·· فثياب العيال على الحبال مغسولة ومراتب النوم ابتلت حوافها من تساقط المطر على جدران الكوخ ·· ضحكت الشمس أكثر واشتدت السخونة فى

خيوطها المرسلة ·· أدركت المرأة نشوة الدفء فأسرعت تلم صغارها من داخل الكوخ وضعتهم فى عين الشمس ·

ـ كنت تفكر فى تحويله الى بيت صغير بعد قليل من التعديل والتهذيب والاصلاح ؟!

ـ أنا ؟ كيف !؟

ـ وقد علمنا · كما هو مبين أمامنا ·· بأنهم كانوا يراقبونك من وراء شبابيك المكاتب ويضحكون عليك ·· ويقولون فيما بينهم ·· أتركوه حتى نرى مدى ما يحصل عليه فى بحثه الدائم الدءوب ·· وأنت تلف حول نفسك ·· تدور حول أبواب المصلحة وتستقر على الرصيف المقابل لباب المخازن ·· ويزداد دورانك المريب فى اليوم التالى ·· وعندما حانت لك الفرصة لتنفيذ خطتك ·· اقتحمت الرصيف كوحش كاسر وحملت الصندوق ·

ـ كنت خائفا جدا ومرتبكا ·· كنت أبحث فى الشارع عمن يعرفنى فيحاول حبس دمى بنظرات ·· مجرد نظرات من أحدهم كانت كافية لنسفى ·

ـ هذا ترصد منك ·

ـ ظللت طويلا أنتظر أن تتاح لى فرصة لآخذ واحدا سليما بطول جدرانى ·· لكنهم كانوا يستحوذون على كل الفوارغ ·· مع أنهـا لا تصلح لشىء سوى وضعها على أرض صالة أو تحت سرير أرضية رطبة أو لصقها على جدران أكشاك اتخذها البعض ممن سقطت بيوتهم مأوى للنوم والراحة واعلان الحسرة والأسى ·

ـ تنكر أنهم كانوا يراقبـونك ·· منذ دخل رأسك موضوع السرقة ؟

– كيف عـرفوا ؟ ثم اننى لم أسرق ·· ليحيكوا لى هـــذه المكيدة ·· لكنهم كانوا يغزلون خيوطها ·· يوم رأيت البك المدير وأحد العملاء يتبادلان أوراق النقد الملونة ويخططان أوراقا وكنت أقدم الشاى ·· كانوا ينسجون فيها ·· وكنت أرى المدير يوقع اتفاقيات وسط لكلمات وتعليقات ·· وضحكات وكنت أنظف يومها زجاج النافذة من الخارج ·· واعتقد المدير أننى سمعت ما يقولون ·· لكن الزجاج كان يفصلنى عنهم ·· ولم أر شيئا ·· لكنه وضعنى على مذكرة مكتبه ·· وراح يحدقنى كلما قدمت له قهوة الصباح ·· لم تعد ابتسامته المهذبة تهمنى بعد تغير طريقته فى التعامل معى ·· كان يذكرنى دائما بما لم يغير من وضعى شيئا ·· فأنا نفس الساعى بنفس البدلة الزرقاء ·· والطاقية الصفراء ·· والحذاء العسكرى القديم ·

– تقصد أنهم لفقوا لك التهمة ؟

– ولم لا ·· ؟ جائز ·· ممكن ·

– الأدلة وشهود العيان يثبتون بأنك مذنب ·· فاعترف ·· سرقة ·· مهمات أميرية والهروب بها فى وضح النهار ·

– أعترف ؟!

·· تضحك الشمس على الجبل ·· منبسطا ضوؤها الحانى على المكان ·· تغمر الأكواخ يتوافد النـــاس ·· آتون من مواقدهم كأفراخ من أعشاشها ·· يلتمسون حرق الرطوبة فى الشــــمس وتصاعد بخارهم ليمتصه الجو فيبدو من بعيد كدخـان سجـــائر يتلاشى مع ذرات الجو ·· تناثروا · ومتاعهم فوق الاكواخ ·· انكمشوا تحد من نشوة الدفء فكرة غروب الشمس بعد قليل ودخول الليل

بريحه البارد ٠٠ المطر المتسلل أو على الأقل بظلامه الذى يطـــوى المكان دونا عن المدينة ٠

ـ لم يكن فى ذهنى أنهم سيطاردوننى حتى مكمن ايوائى ٠٠ قلت فى نفسى ٠٠ ربما يتعبون ويعودون من حيث جاءوا ٠٠ ولن أتركهم يأخذوه منى ولو على جثتى ٠٠ بعضهم يلم هذه الصناديق ويقوم ببيعها ٠٠ لم أكن أعلم أن تحملهم مسافة بيتى البعيد ومشقة أيام مراقبتى وانتهاك الجبل بوازع من البـــك المدير ٠٠ وبعض حاشيته ٠

ـ وأخذوا الصندوق وأعادوه الى المصلحة ؟

ـ جاءوا بعربة نقل كبيرة ٠٠ مزقوا فوقها الصندوق ٠٠ حملونى بجانبه ٠٠ مع أحد رجال البوليس السرى للمصلحة الذى كان يتناوم فى خبث ٠

ـ يعنى ضبطت متلبسا ؟

ـ لا أعرف ٠٠ ما رأيك أنت ؟

طنا كان رأس الشرطى ٠٠ قال :

ـ يحول الى النيابة ٠

كانت الشمس تلملم خيوط الدفء من فوق الكون ٠٠ تتسحب من الاركان ٠ وتغرب تسقط بعيدا حيث لا يراها العيال والمرأة المنتظرون على باب القسم ٠

١٩٨٤

***

حـــاملة الصـــاج

رأيتها ·· وصاج الكعك فوق الرأس يتحرك ·· كان الصمت يحويها ·· وعين الشمس تبصرها ·· تضم الأرض ·· أرصفة · وأسفلت · أقدامها الصغرى ··

وصهد الظهر فى مسام الوجه مرشوق فزاد الوجنة الحمراء احمرارا ولكن بدون عرق · كانت تمشى · وعنقها المصلوب يحدد نظرات العين فى المستوى الأفقى فترى بطرف العين ــ فى القرب ــ أطفال المدارس وهم يحملون حقائب الكتب · يسارع بعضهم فــوق الأرصفة ·· تحملهم نشوة البراءة المدللة ·· يمرحون كالعصافير الملونة فى دوائر الأعين الرقيبة ·· وترى النســاء · والرجـــال والخادمات النظيفــات تهرع أيديهم ويهرعون يحلقون ·· خائفين وضاحكين ··

وترى من بعيد ومن أسفل جفنيها أشكال أحذيتهم التى تكسو نواعم الأقدام ··

وصهد الأسفلت فى الأقدام مغروس ·· فترفع الكعبين حينا وأصابع الأقدام حينا ·· وتريح اليسرى بعد اليمنى ·· محــاذرة سقوط الصاج ·· وتقول ··

ـ شبابيك الكعك يا طازة ٠٠

وشعرها الأصفر المنكوش تحت مربع الصاج متصالب بـلا حركة ٠٠

كانت الفتيات الخادمات واقفات يلبسن فى رءوسهن المغسولة الايشاربات الملونة ٠٠ يقفن نظيفات مبتسمات فى استحيـاء عـلى أبواب المدرسة وفى أدب جم ٠٠ ينتظرن فى الصباح الدخول وعند الظهيرة خروج الأطفال ٠٠ وتومض فى رأسها ومضة كثيرا ما كانت تبرق فى أحيان انتشاء الأمنيات الراقدة فى قاع القلب كلما طالعها شعر الرءوس المصفف ، فى الخادمات ٠٠ وشعور راكبات العربات الفـارهة التى تشاهدها كل يوم وترى اللواتى يقعدن فى المقدمة يدخن السجائر ٠ كانت أصابعها المصفرة تلامس شعرها المنكوش ٠ تلقى ٠ أو تركن خصلاته المكرمشة خلف أذنها وكأنها تقول فى ثقة ٠٠ ان لها شعرا جميلا مثلهن هى أيضا ٠٠

ـ طازة ٠٠ كعك طازة ٠٠

وتتصالب الشمس ، تحتل قلب السماء الرمادية ٠٠ فى تعنت ٠٠ تبعث اشعاعها الساخن ٠٠

لكن الصاج يحميها ، علاوة على تسخين الكعك ٠

وثمة عربة أو عربتان ٠٠ يدنوان ٠ فى بطء ٠ يخرجون من النوافذ وبالفلوس القليلة أيديهم الطرية ٠ ويتحتم عليها ـ حينئذ ـ أن تحنى الجذع قليلا ليتسنى لليد الممدودة تناول ما تريـد من كعك ٠٠

تودع الفلوس جيبا خفيا فى جانب فستانها القديم ٠ وتلمح الراكب وهو يقضم من كعكها الساخن ٠ ويتوارد الى الذهن ذلـك

الصباح البعيد ·· البعيد ·· فطورها الذى لم تتناوله بعد ·· تذكرت أنها لم تأكل · وأن جوفها خاو · وكيف تاه عن رأسها أن تأكل صباحا قبيل رفع الصاج وايداعه الرأس ؟ ·

والأطفال يلعبون فى فناء المدرسة · كانت تبصرهم · وتقول · وتقاوم خواء الأمعاء ··

_ طازة يا كعك ··

وتمتد الأيدى ·· تأخذ الشبابيك وتنقد اليد الممدودة قطع الفلوس ··

وبحركة تلقائية · تدخل اليد الجيب الخلفى ·· تجس الفلوس فى قاع الجيب ويطمئن القلب ··

فخلف كشك شرطى المرور يكون الفرن ·· والفرن يصنع الخبز الأفرنجى الناصع البياض لسكان الحى المتأنقين ·· والذى يصنع شبابيك الكعك ·· والذى خلف طاولات العجين وأجولة الدقيق · ونظافة الفرن ·· يقف أخوها الكبير · البالغ من العمر عشرين عاما ·· والذى يشبه أباه العجوز · بصوته الجهور المرتفع المملوء بالشر والقائم أبدا بأعمال حانوته المضعضع القديم بطرف الحديقة ·· أيضا يبيع الكعك والجبن الأبيض · والجرجير والبيض المسلوق ليلا ··

_ طازة يا كعك ··

من الغد ·· سوف تلبس حذاءها ·· أليست بنتا هى مثلهن ؟ ·

قالت فى نفسها رغم صراع تلافيف المصارين ··

كيف أتناول الآن شباكا وآكله ·· ؟ وأبوها العجوز ، ذلك

الجلف البدين ٠٠ يدفع باب الكوخ صباحا ٠٠ صائحا فيها ٠٠ لاعنا اياها ٠٠ لنومها الطويل وجسدها الكسول وأيامها السود ٠٠ أن تقوم ، فالساعة شارفت على السابعة ٠٠ وعليها أن تذهب الى الفرن لتعبىء العربة اليد كعكا وتأتى بها برفقة أخيها ٠٠ ثم لتحمل صاحبها وتمضى الى السوق ٠٠

ـ الطازة ٠٠

كان يحصى عليها ما تحمل من شبابيك ٠٠ خمسون شباكا ٠٠ فى عشرة قروش ؟ ٠

خمسة جنيهات ٠٠ ولا بد للكعك أن يبـــاع ٠٠ وأن تأتى بالجنيهات الخمسة كاملة ٠٠

وأن بيع الصاج مبكرا عليها بحمل صاج غيره ٠٠
ـ الطازة ٠٠ الكعك الطازة ٠٠

يتمطى بدنها فوق الأريكة ٠٠ تدعك عينيها المقفلتين بالرغم من نهر أبيها من الخارج ٠٠

تسوى شعرها الأصفر ٠٠ تزيح البطانية المهترئة ٠٠ جهمة الوجه ٠٠ ورغبة عارمة فى البكاء والبقاء لتكملة نومها اللذيذ ٠٠

تعترى الرأس ذكرى أمها الحنون ٠٠ كانت تدافع عنها كثيرا ٠٠ تقف فى وجه أبيها ٠٠ لقد ماتت فى نفس المكان منذ ثلاثة أعوام ٠

يقولون فى الطريق ٠٠ وفى الحوانيت ٠٠ ان كل انسان له يوم سوف يموت فيه فالله لا يترك أحدا ٠٠ ويقولون أيضا ان الدنيا مثل الكأس الدائرة لابد أن يتذوقه كل حى ٠ وتفرك عينيها ٠٠ وأباها يرفع فوق رأسها الصاج ٠

تجوب الشوارع المحيطة فى الصباح وحين دخول المدارس الخاصة ٠٠ ثم تجوب الشوارع الأخرى البعيدة المليئة بالناس ٠ والباعة عند اقتبال الظهيرة وظهور أسطوات النجارة والحدادة ٠٠ وسمكرة السيارات ٠٠ وقاعدات البيوت من النساء اللواتى يشاكسن الباعة فى أثمان الخضر والفاكهة ٠٠

البيوت هنا مقفلة على الدوام ٠٠ فيلات أبوابها من الحديد السميك ٠٠ أسوار عالية يعلوها نصال مدببة ٠٠ أناس يركبون العربات ٠ لا يكلم بعضهم بعضا ٠٠

وقلما يباع نصف الصاج فى هذا المكان المكفهر بالوجوه العابسة ٠٠

لا بد أن تأكل شباكا ٠٠ فالجوع يكاد يفتك بالجوف الخاوى ٠

لكن سينقص من النقود عشرة قروش ٠٠ ؟ لا يهم ٠٠ ستقول له انها لم تأكل صباحا وعليه أن يخصم ثمنه من مصروفها ٠٠

ومنذ متى تأخذين مصروفا ٠٠ ؟

دق جرس المدرسة ٠٠ انقضى زمن طويل منذ الصباح ٠٠ تراصت على جانب الشارع عربات أهالى الأطفال ، والذين بلا عربات ارتكنوا ظلال السور تحت الأشجار ٠

يراقب الجميع حشود العيال المسرعين خروجا من الباب الحديدى الكبير ٠٠ تتلقفهم أحضان الأهالى وأيدى الخادمات ٠٠

كان بعضهم يشترى الكعك حين كانت تزاحم لتقف فى المنتصف قائلة ٠٠

ـ الكعك طازة ٠٠ طازة يا كعك ٠٠

تتدافع المناكب ·· ويهرعون الى أحضان ذويهم ·· بعضهم كان يقترب ليشترى لكن صوت الأم أو الأب ينهره ألا يأكل من الباعة الجائلين ··

ويخلو المكان ·· والرصيف يقفر والأسفلت الفارغ تأكلـــه عربات فارهة ليعود الشارع الكبير الى طبيعته الأولى حاويا الصمت والسكون الكئيب ·· وتغلق المدرسة بابها ·· كانت تفكر جديا فى تناول شباك ·· ولو أخذ بعد ذلك عمرها ··

بدأت تمد القدم نحو الشوارع الأخرى ·· بطيئة الخطو ·· يلدغ الأسفلت الساخن بطن قدميها فتسرع مرة ·· وتبطىء مرة ·· لو لبست حذاءك ·· أليس كان أفضل ·· ؟

الحذاء من أجل العيد فقط ··

تحسست جيبها الخفى ·· لقد امتلأ ·· تقريبا ·· بالنقود ·· وعليها أن تجمد الفكة كلها فربما يسقط منها شىء ·· (تبقى مصيبة) ·

كان الباعة فى الشوارع البعيدة يتصايحون فى نداءات متضاربة مروجين عن بضاعتهم ··

ــ الطازة ·· كعك طازة ··

والنسوة يمضين بحمولات الســـوق ·· الخضر والفاكهة · والعيال الحفاة ، يلعبون ويمرحون ·· عندما كانت فى الخامسة ، كانت تمرح مثلهم ·· كانت أمها مازالت عائشة ·· لكنها الآن فى العاشرة ·· ويقول أخوها الكبير ·· ان بدنها يفور بسرعة وعليها أن تحافظ على نفسها ولا تلعب مع العيال ··

ومادمت كبيرة لم لا تأخذين شـــباكا ؟ · ليفعـــل أبـوك ما يفعل ··

لتترك الصاج وترتاح ‥ أثقة أبيــك أهم لديك من صراخ بطنك ‥ ؟

أهم من بدنك المنهوك ‥ ؟ أنقود أبيـك أفضـــل من راحة جسدك ؟ ٠

ــ الطازة ٠ الطازة ‥

انحنت أمام أقرب عربة خضار فارغة ٠ ليحاذى الصاج سطح العربة ٠ دفعت الصاج بلين واستقامت واقفة ‥

كان الصـاج فارغا الا من شـباكين ‥ واحـد سليم والآخر مكسور ‥

جلست فوق حافة الرصيف ‥ أخرجت الفلوس من جيبها الخفى ‥

أحصتهم فى « حجر » فستانها ‥ ربعمائة وثمانين قرشا ‥
أحصتهم مرة أخرى ‥ ربما هناك زيادة فيكون للجـــوف شباك ‥

لا ٠ ربما هناك نقصان فيكون ضربا مبرحا وشتيمة ‥
ربعمائة وثمانين قرشا بالتمام والكمال ‥

حملت الصـاج وعادت ‥ كان الصمت يحويها وعين الشمس تبصرها ‥

١٩٨٤

***

البنت ٠٠ والمربعـــات

ـ انحنى جذعها النحيل ٠٠ انحسر عن ردفيهـــا العجفاوين الفستان ٠٠ واجهت الأرض بوجـه منمنم ٠٠ قبضـــت بأصابع ممصوصة قطعة الطباشير ٠

رسمت فوق الأرض خطا مستطيلا ٠٠ أسندت الركبة فوق الأرض وبدأت فى تربيع الخط ٠

انقصفت قطعة الطباشير ٠٠ نهضت ٠٠ أسرعت الى مدخل الفيلا الجانبى ٠٠ أحضرت من حجرة أمها قطعة أخرى وعادت ٠

كانت سيارات البيوت المجاورة تدغدغ الصـــمت والأسفلت لترتكن الأرصفة فى هدوء طامسة تحت عجلاتها الخطوط القديمة ٠

اهتز رأسها الأكرت أسفا ٠

حمدت الله على أن العربات لم تقف احداها أمام المدخل ٠٠ تنبهت الضجة أطفال العمارات فى المداخل ٠٠ تقوقعت فى فستانها ٠٠ استندت بيدها فوق الأسفلت أعادت ما انطمس من مربعات ٠٠ نهضت لتقيس المساحات التى ستلعب عليها ٠٠ تبسمت وانحنت ٠ فى وسط الشارع لفظت المداخل الصبية ٠٠ والدراجات ، تغمر

الأسفلت كعادتهم فى كل « العصارى » حين تحتجب خلف السطوح الشمس ٠ يرتقون الصمت القاطن فى ذلك المكان المتطرف من المدينة ٠٠ يشدون الرحال نحو حدائق الشلالات القريبة يتسابقون ٠٠ يلعبون ويضحكون ٠٠ يشرب بعضهم السجائر ٠٠ ويتعاركون ٠٠ يضرب بعضهم بعضا ثم يتسابقون الى أبواب النوادى القريبة ٠٠ توقفت الفتاة فى منتصف المربعات متحفزة ٠٠ دارت الدراجات حول السيارات والمربعات ٠٠ انطمست بعض الخطوط ٠٠ تضاحكوا ٠٠ وتباعدت الدراجات الى آخر الشارع ٠

تلاشوا هناك ٠٠ وبدأت فى عملية الوثب ٠٠ ضامة حـول بدنها النحيل ثوبها القصير ٠

صاحت امرأة من شرفة العمارة المقابلة ٠

ـ هشام ٠٠ هشام ٠٠ تعال ٠

والطفل فى مؤخرة الشارع والدراجات ٠٠ اســتدار بدنه المنفوخ ٠

ـ لا تلعب بعيدا ٠

تدحرج فوق الأرض بدراجته ٠٠ عاد ٠٠ يقاوم شهيق التنفس بصعوبة ٠٠ قالت أمه حين اقترب :

ـ العب هنا ٠٠ لا تذهب بعيدا ٠

توقفت الفتاة عن الوثب ٠٠ اقتعدت حافة الرصيف .. تقوقعت فى ثوبها ٠٠ نظرت فيما صنعته من مربعات ٠٠ فكرت فيمن تحضره ليلعب معها ٠

أيمكن لأمها أن تتقافز فوق المربعات ؟

وهى تقوم بعملية العد ؟

أم تقفز هى وتقوم أمها بعملية العد ؟

نعم ٠٠ لتجلس الأم فوق الرصيف وتقوم هى بعملية العد ٠

والطفل يعود بدراجته ٠٠ مقتربا ٠٠ لا مباليا ٠٠ يدور حول المربعات ٠٠ ابتعد ٠ لكن أمها العجوز لن تقدر على المجىء فهى تعمل الآن فى مسح السلم ويمكن أن تنهرها ٠ ألقت على الكف الصغيرة خدها ٠ تاركة ثوبها منحسرا عن عظامها ٠٠ لمحت عينا الطفل وهو ينظر ضاحكا ٠٠ ضمت نفسها وقامت ويقترب الطفل ٠٠ يدور يبتعد ٠٠ يجىء ٠٠ يقترب ٠٠ يصعد الرصيف ويهبط ٠٠ يتفادى السيارات المركونة دافعا فوق الخطوط دراجته وبدنه الثقيل ٠

احتضنت عينيها ٠٠ اهتزت بالغيظ أقدامها ٠٠٠٠ تمتمت ٠ ولزمت الصمت ٠٠ استكانت حين ابتعد ٠

نظرت الى المربعات ٠٠ وانحنت لتكمل ما انطمس من خطوط ٠٠ أغمضت عينها ٠٠ رفعت للسماء وجههـــا ٠ خلعت شبشبها البلاستيك وقفزت مرددة لنفسها (أريجة ٠٠ عامية) رافعة بيديها طرف ثوبها منفرجة الساقين ٠

لكن الطفل المتخم ـ شحما ٠٠ جاء ٠٠ توقف ٠٠ استند على مقود دراجته ناظرا الى نصفها السفلى ٠٠ أسود ونحيل وعليه بقع جيرية ٠٠ كانت تتقافز ٠

قاد دراجته ٠٠ تباعد ٠٠ دار ٠٠ اقترب وداس فوق طرف المربع الى جوارها ٠٠ اصطدمت العجلة الأمامية بجذعها المقوس ٠٠ فزعت ٠٠ أنت ٠٠ توقفت عن الحركة ٠

حدقت فيه وهو يدور حولها ٠٠ قالت :

ـ تسمح تلعب بعيدا ٠

شملها بنظرة متحفزة ·· وضعت يديها حول خصرها ·· تنفست ضيقا ·· ابتعد الطفل وانحنت هي لتكمل ما انطمس من خطوط ·· حمل الطفل التجهم ·· انتفخت أوداجه غيظا ·· وجاء ·· اقتحم المربعات فى هدوء ·· توقف فى الوسط ·· تراجعت هي ازدرى شكلها بحلقة ·· وثب بدنها النحيل ·· ودفعت الدراجة خارج المربعات ·

ـ العب قدام بيتك ·

تجهم ·· نظراتها المحترقة أعادته ليقف متحديا فى وســط المربعات ·· قالت فى حنق :

ـ هذه القطعة تخصنى ·

ـ يعنى شارعكم ؟

دائرا حولها فى بطء ·· وتسلط ·

ـ ولا شارعكم · ؟

لاحقته بنظرات المقت ·· قال :

ـ شارع من يعنى ؟

ـ شارع الحكومة ·

توقف عن الدوران ·· وتوقفت نظراتها ·· قال :

ـ اذن ·· الشارع ملك بابا ·

ـ لكن هذه القطعة ملكنا نحن ·· بابا قال لى ذلك ·

ـ أبوك ؟

ـ نعم ·

ـ أبوك يشتغل عند بابا ·

ـ انت كذاب ٠٠ لأن بابا لا يعمل عندكم ٠

ـ أبوك يعمل عند كل الناس ٠

ـ أنت كذاب ٠

انتفخت أوداج الطفل ٠٠ قاد دراجته وانطلق بعيدا ٠

اقتعدت هى حافة الرصيف ٠٠ واحساس بالفرحة يخامرها ٠

انحنت لتكمل المربعات ٠٠ لكن هاجسا بالقلب أرعشها ٠٠ توقفت وتطلعت اليه ، عائدا كان يحمل الغضب ، والدراجة ٠٠ توقعت أن يدوس المربعات ٠

فى لحظة الخوف والتحدى ٠٠ اندفع بقـــوته داخل المربعات مخترقا بدنها الواهن انطرح نصفها على الأرض وعلى الرصيف ، نصفه الآخر مرتطم ٠٠ انت ٠٠ وسكتت ثم بكت ٠ توقف البدن المتخم ناظرا اليها ٠٠ يستعيد أنفاسه ويلفظها فى مشقة ماســحا بحذائه الكاوتشوك كل الخطوط والمربعات ٠

حين لامست الفتاة رأسها المرتطم بالرصيف ٠٠ صرخت ٠

كان للزوجة الدم النازف رعدة ٠

أسرعت أمها من أقصى المدخل ٠٠ تناولت الرأس النازف فى ذعر ٠٠ كانت أم الطفل تطل من شرفتها قائلة فى فزع ٠

ـ ماذا حدث يا هشام ؟

ـ يا ماما ٠٠ قالت لى يا كذاب ٠

تطلعت أم الرأس النازف ٠ فى وجه الطفل وأعين الغضـــب المستكين ٠٠ قالت أمه :

ـ طيب اطلع يا حبيبى ٠

حملت الأم ابنتها ٠

ـ ألعب قليلا يا ماما ٠

اتجهت بالرأس النازف صوب المدخل ٠

تناول الطفل قطعة الطباشير ٠٠ وبدأ يخط فوق الأسفلت مربعات ٠

١٩٨٤

***

ركن بعيد عن العالم

رتبت فى المطبخ الأوانى .. نظرت صندوقها المركون ..

مسحت سطح الموقد والصـــندوق . والرفوف الرخامية دواليب الحائط البيضاء .. تنهدت حين انتهت وبدت الأشياء نظيفة لامعـــة .

أغلقت الباب ونظرت الصندوق الصغير .. فتحت غطاءه .. فى الزاوية ركن فارغ حرك بالنفس ارتجافة شوق منطفئة ..

تناولت من ركن الثياب مشط شعرها الملموم وراء العصـــبة وواجهت مرآتها الصغيرة .. وجها مدورا وصغيرا ..

(وجهك مستدير كقرص القشدة) ..

كانت أمها تقول ذلك فى بلدها البعيد ..

حلت من حول الرأس عصبتها فانسدل شعرها المموج . غطى كتفيها فابتسمت فى نفسها ..

(حين يأتى سأطلق شعرى هكذا ..)

دعكت وجهها الأملس بمسحوق توارى وسط الثياب ..

(لماذا تصر سيدتى فى لم شعرى فى العصبة . ؟ ألأنه جميل ؟ وحريرى ؟ ..)

مشطت الشعر ٠ خلف الظهر منسدلا وناعما ٠

دارت بالمرآة خلف خصرها وحولهـــا ٠٠ هزت الرأس ٠٠ وضعتها فوق غطاء الصندوق وخلعت فستانها بدا قميصها النايلون وقطعتا الأسفل والصدر ٠٠ ممشوقا كان بدنها ٠٠ ناعم الملمس لم يمسه فى العمر أحد ٠ فقط ٠٠ سيمسه هو حين يعود ٠٠ فهـو صاحبه والذى يملكه ٠٠ كما كانت تقول الأم هناك ٠٠ مكورا صدرها البارز فى حلاوة ٠٠ توهجت والأسارير وأخرجت فستان الخروج ٠

والباب يدق والقلب ٠٠ أسرعت بلم الشعر فى « العصبة » ٠

واربت الباب فاندفع طفلان ٠٠ ككل خميس فات ٠ تلقف يدى الولدين يدها ذات حواف الأظافر الجيرية والطلاء فاقع اللون ٠٠ ينطوى على نفسه القلب ٠ فى ركن الصندوق الفارغ .. تداخلت ٠٠ سلاسل أصابع الطفلين حـول يدها ٠٠ والطفلان فى العاشرة أحدهما والثامنـــة الآخر ٠٠ تهللت فيهمـا الأسارير وتراقصت الفرائص نشوانة فحين الانطلاق من أسر الأب والأم قد حان ٠ فليغادرا حجرة المكتب موصدة الأبواب ليتنفسا هواء الشـــلالات النقى بعيدا عن زهور البيت وقصـــارى الأركان المنحطة وانبعاث الدفء من ثريات شنقت فى السقوف وتدلت كموتى المشـــانق ٠ تهتز فى صمت الســـجون ٠٠ كان الأب فى روب البيت قاعـدا يتصفح فى هدوء جريدة الصباح الفائت ٠٠ والأم تحتسى فى براح الصـالة وشاشة التليفزيون قهـوة ضبط الدماغ ٠٠ فليل اليوم هادىء يوحى ويعد للقاء محب آت قد اعتادا عليه ٠٠

أودع الطفلان فوق خد الأم قبلة ، وخد الأب قبلة ٠

ويد الفتاة المرتعشة ــ جفلت البصر ــ تشد الأصابع الصغيرة نحو الباب ٠٠

في مدخل البيت ·· حوت العين صندوق البريد ·· خلسة ·· نقبت فيه وارتحل الذهن بركن الصندوق الفـارغ · انتشى القلب في استكانة ولهى ··

يولج النيل برونقه الجميل ـ في بطء وسكون ـ شوارع الناس ساكني العمائر العتيقة الشامخة كالمردة المتكبرين ، يلمحون أقزام البيوت الواطئة البعيدة في أنفة ·· والآخرون في خنوع صامتين ·· يكشفون عن أنيابهم الصفراء ويأكلون بعضـهم وينـامون أو يموتون ·· ترك الطفلان يد الفتاة وراحا في سعادة غامرة ·

(الغيط كان ملعبك · وابن عمك المسافر في البلاد القصية قرينك وغريمك وأخوك ·· صغيرا كان وأنت لم ترينه حين شب .. أكبيرا هو الآن ؟ أتراه يذكرها ؟ أله شارب ولحية يحلقها كل حين ؟ أمها تقول انه سيأتي ذات يوم ويتزوجها ·· أتراه يتعرف عليهـا عندما يجيء ؟ أياما كانت لن يأتي مثلها أيام ·· ؟

حين انتبهت لفراغ اليدين احتوى الخوف القـلب ·· هلعت حولها النظرات ·· كان الطفلان يلعبان بعيدا ·· أسرعت خلفهما ·· قبضت يدها على أصابعهم الصغيرة ·· لكن الأيدي لم تستقر فوق الأصابع التي انطلقت تمرح ·· في الرصيف المقابل ، كانت تلمح استدارتها بجسمها المشوق في زجاج دكان بائع الزهور ··

(ما لون شعره ·· أسود · أله شارب حقا أم تراه يحلقه) ·
(أمك تقول انه سيجمع المال ويأتي ليطلبك ··) طمس نصفها الأسفل كلب أبيض يتقافز · صغيرا في حجم قط الحقول · يتلاعب ذيله القصير ··

لف الدلال حول الرقبة سلسلة ذهبية طرفها بيد سيدة وقفت بساحة الدكان ··

اهتز ذيل الكلب ـ مقبلا الى الدكان ـ بهدوء وراحة ·· رقد أسفل موائد الورد بجانب قصارى الزرع المتراصة · والسلسلة بيد المرأة الصغيرة زرقاء العينين · حمراء الشعر · نحيلة القوام تشترى الورد ·

كان الطفلان يلعبان بقلب الفتاة المضطرب ·· يتباعدان حينا ويدنوان ·· تعلو خفقات القلب · وتهبط فوق الأســـفلت حين يهبطانه ·· تدهس أعصابها العربات المارة ·· تود الصراخ · يهتز الكلب وقصارى الزرع · والسيدة تغادر الدكان ··

جميلا كان المنظر وممتعا ·· كلبا فى عز العالم يكون ··

(سيفتح لك بيتا ويكفيك تعب الخدمة ·· ستخدمينه وحده).

والقلب يدق ابتهاجا ·· يمكن أن تأتى ـ فى الغد ـ منــه رسالة ·

·· امتدت أيدى الطفلين ·· اجتذباها ·· ونظراتها المسحوبة على الكلب والسيدة التى تحمل باقة الورد ·

كانت تقود الكلب وتلتفت اليه فى كل حين ·· لم يكن يعد بوزه ليتشمم الأرض أو يبول على الحائط رافعا ساقه ··

كانت تحس أنه مهذب ونظيف ··

والطفلان يسحبان الذراع بلا رغبة فى الحركة ··

لما انتبهت لهما سحبت الذراع وقالت فى نفسها ·· لن أسمح لهما أن يسحبانى ·· يلعبان كيفما أريد أنا ·· لاكما ·· لكن ·· تتصارع اليد ·· والذهن فى ذلك البعيد ·· قررت ألا تنصاع ·· قال أحد الطفلين وهى تتحرك ·· ـ تعالى ·· تعالى ··

(سيقول فى رسالته ‥ أجىء اليك من بعيد ‥ أراك من بين كل الناس ‥ من نافذة الطائرة أراك ‥ أحمل لوجهك الجميل عطورا ‥ وألوان المساحيق ودبابيس الشعر والفساتين ‥)

فى كل صباحات السنوات الفائتة فوق بيت سيدتها ۰ تستطلع مداخل البيوت ۰ تجوب الأرصفة بعينيها حين تذهب الى السوق ۰ تنظر موزع البريد المسرع بحقيبته الممتلئة نحو الأفنية يودع الرسائل الصناديق ‥ تبصره حتى ينتهى كأنه سوف يدعوها ‥ لكنها تمضى ‥ موقنة باقتبال الغد ‥ تأتى بلوازم البيت ‥ تشرئب بعنقها ناظرة فى صناديق الرسائل ۰ كأن لها بين الصناديق صندوقا سيطل منه مظروف قريبها الحبيب ۰ يبثها فيه كلمات الحب والقبلات الحارة وأمنيات اللقاء وضم الجسد للجسد ‥

ولا تسع فرحتها الغامرة الشقة البراح فتظل تجوب الحجرات جذلانة القلب مغنية فى غياب السيدين ‥

وعن الحبيب تصنع الطبيخ ‥ وتكنس الأرض ‥ وتلم الغسيل ‥ وتلبس الفستان ‥ وتمشط شعرها ۰ وتهبط الدرج نشوانة ، تنتظر خروج العيال من المدرسة ‥ تلمح أعين الرجال الذين لمحوها فأعجبوا ‥ وتقول فى نفسها (لا تنظرون الى هكذا فلى حبيب أنتظره) ‥

وتساق القدمان ۰ تعبران الأسفلت الى الرصيف الآخر ‥ حين يدور ويمرح ذيله تحت تطلعات صاحبته الواقفة فى سكون منتظرة فى تأن وروية أن يفرغ من دورانه حول نفسه لفك قيده فتهمس له السيدة بالعيب ‥

كانت أقدام الطفلين تقترب فى حذر وصمت ‥

تبسمت السيدة ونظرت الى الفتاة التى بادلتها بسمة خجلى وفركت أصابعها متطلعة الى السيدة بدورها ‥ ثم تلاشت البسمة ‥ قارنت طولها بالأخرى ‥ الأخرى أطول قليلا ‥ وأكثر نحافة لكن أجمل وجها ‥ ربما بفعل شعرها الأحمر ‥ وثيابها الجميلة ‥ قالت فى نفسها ‥ المهم فيما تحت الثياب ‥ من يعلم ربما الشعر يملأ بدنها ‥ وربما كريهة الرائحة ‥

فى الصباحات التى بلا ســـوق ‥ تنفرد بالمرآة والبانيـو والصابون ، تستحم ‥ تدعك قعر القدم ‥ أبيض هو الآن مما كان عليه فى الريف حين كانت طفلة ٠

تغسل شعرها وتخلع ثيابها ٠ قطعة ٠ قطعة ٠ وتشاهد مفاتن الجسم الفائر ‥ وتخجل من نفســـها ‥ انه ليس لك بل لذلك البعيد ‥

وتلبس ثيابها وتلفظ آهة شوق ‥ ويـــكون موعد موزع البريد قد أزف ٠ تسرع الى النافذة ‥ تنظر اليه فى صمت وأسى ‥ يحدوها أمل فى غد يحمل رسالة ‥ ستكون أول رسالة ٠ تضعها فى صندوق الملابس فى ذلك المكان الخاوى ‥ المخصص ٠ والذى لن يشغله سوى الرسائل فقط ‥

لكن الزمن أضاع رونق الفساتين ‥ وأكلت بعضها العتة ٠ وكلما نظفت الصندوق ـ وذلك يحدث مساء كل يوم ـ ترتب الهدوم على جانب ٠ وتترك مكان الرسائل خاليا كما هو ٠ تنتشى فيها التلافيف وتشملها سعادة غامرة ‥

كانت السيدة تفك الطوق من حول عنق الكلب لينطلق وثبا فى المربع المتواجدين فيه ‥ ضمت المرأة السلسلة بالطوق حول يدها وراحت تنظر اليهم فى صمت ‥

تآكلت من القلب السعادة ٠٠ قالت :

ـ هيا يا أولاد ٠٠ كفاية ٠٠ لازم نرجع البيت

ـ نلعب قليلا يا داده ٠٠

ـ الليل ذهب ٠٠ وبابا يغضب ٠٠

ـ لا لن يغضب ٠٠

ويلعبان ٠٠ والكلب يمرح ٠٠

حين سارت السيدة حاملة باقة الورد والسلسلة ٠ تبعها الكلب دائرا حولها ٠ متعثرا فى سيرها ٠٠ والطفلين انتزعا منها القلب الواهن وانطلقا صوب الحديقة ٠٠ حملها الذعر ٠٠ ألقاها وراءهما ٠

تضاحكا ٠٠ دارا حول الشجرة الكبيرة ٠٠ ركضت خلفهما ٠٠ تعثرا فأصابها الضيق ٠٠ توقفا يلفظان أنفاسهما المتسارعة فتوقف بها المقت ٠٠

تلوثت ثيابها بوسخ الأرض فامتعض فيها القلب ٠٠ واغتاظت ٠٠ لو كانا ولداها لقصمت وسطهما ضربا ٠٠ لكنها ضحكت فى بله ٠٠ حين لاحظا تزمرها الواضح أبديا رغبة عارمة فى لعبة « المساكة » نفرت ٠ وبدأت تدور حولهما أينما ذهبا ٠٠ حتى اذا تقطعت منها الأنفاس ولهثت ٠٠ تضاحكا بصوت عال ٠٠ وتوقفا بعيدا ٠٠ وتوقفت هى تماما عن الركض ٠٠

فكرت فى تركهما يفعلان ما يحبان ولتلعنهما فى سرها ٠٠

لكن أمها حين جاءت بها طفلة من البلد ٠ أسلمتها سيدتها ـ أمهما ـ فتولت بدنها هذا بالغسل والتنظيف ونقع شعرها فى

المبيدات وايداع قدميها فى الماء والصابون · وحشو الجوف وارسال المال لأمها فى البلد ··

فى زيارتها للبلد ·· العيد الماضى ·· قالها لها امها أن عليها أن ترعى الله فى حق سيدتها ··

وعندما بكت فى العودة ــ قامت أمها أيضا ·· غدا يأتى ابن عمك من بلاد « بره » ويتزوجك ويرحمك من الخدمة ·

هو قال لى ذلك · قال انه سوف يبعث اليك بالرسائل على عنوانك بالمدينة ·· وأفسحت فى القلب مكانا ·· وفى الصندوق أيضا مكان ··

أصابع تعبة · تلاقت بأصابع تعبة ·· انتهكت فى الركض واللعب · أحست بأن شعرها قد نكش ·· وان خديها ملتهبتان ·· صدرها النافر أكثر علوا وهبوطا ·· متعبان جرتهما ·· يزمجران حينا ويضحكان حينا ·· فقد استطاعا أن يقطعا قلبها ركضا ··

فى المطبخ ·· نظرت فى المرآة الصغيرة ··

مشطتما نكش من شعر ·· أبصرت ثدييها النافرين ··

خلعت فستانها ·· وقفت بالثياب الداخلية ··

فتحت صندوقها الخشبى ·· طالعها ركنها الفارغ من الثياب ظلت تنظر فيه نشوانة القلب مبتسمة ··

١٩٨٥

***

مقتل العريف « أبو الشوارب »

ناعسا كان الليل فى الصمت المطبق ·· يتقلقل ·· يتهادى هابطا ·· ينسحب عبر الريح المتجمد ·· يهبط ·· يرتقى العمائر فسيحة السطوح ·· يناجى الهـدوء المبسوط فوق أسفلت الشوارع الواسعة ·

ـ ١ ـ

ـ اليقظـــة ـ

فى العاشرة من ليالى الخدمة ·· يتساقط الليل المتخم بصهد الريح فوق البيوت المنخفضة ·· ينغرس فى الأركان ·· يتمطى فوق الوحل المستوطن النواصى ·· ينهض من فراشه الدافىء ·· يتمطى فى خمول ·· تنوء أسفله « ملل » السرير العمدانى يدعك رأسه ·· وامرأته البدينة منكفئة تكون ·· تشـــدو « تطرقع » أصابع قدميه ·· قبل طلوعه يأتيها ·· يفرغ فى بدنهـــا نخاعه والجيوب ·· يسقط أدرانه بماء ساخن ويمنح بدنه المدعوم لحمـا مشويا ·· تغزو رائحته أنوف الجيران ·

يدخل فى كونه الأوحد ‥ بذلته الميرى السوداء ذات الأزرار البراقة والصقور المجنحة المعتدلة ·

يرفع القلة ‥ قريبا من فمه المفتوح ‥ يتجرع بحذر كى لا يبتل شاربه ‥ يجلس فوق أريكته الخاصة بمعدات فتل الشارب الكبير · يظل يفتل طرفيه بأصابع سميكة وخشنة الى أن يتوقفا ‥ مبرومين عاليا ‥ قريبا من انتفاخ أجفانه ‥ ويطالع فى المرآة نفسه ‥ يتجشأ ‥ يلفظ غازات بطنه المنبعج ويشهق مرتاحا ·

أجمل ما يمكن سماعه فى عالم المرأة البدينة ‥ بلوغ صوته المتجشىء ‥ ملاطفا أذنها بشير صحة البدن ‥ وقوة الانسجام ‥ تنظره ‥ يلف حول بطنه والظهر حزامه الجلدى اللامع ‥ يشهق عاقدا ما بين حاجبيه الكثيفين حين يشرع فى الخروج ‥ تودعه امرأته وحاجباها الكثيفان يستعدان لعملية التعقيد والتجهم ·

يطقطق بلاط المدخل فى البيت القديم ‥ يتوقف على بابه ‥ يخرج علبة سجائره ‥ ينظر فيها ‥ ينتزع واحدة من ثلاث ‥ يشعلها وأطراف عينيه تجوب المكان المحيط · يقف النسوة الجالسات على أبواب البيوت ‥ يلملمن أطراف الثياب ‥ يبتسمن فى خفة ‥ يتداخلن ناظرات بأطراف العيون ·

والرجال المتهالكون من تعب النهار ‥ جلوس المقهى القريب ‥ يتحفزون قياما لرد تحيته المقتضبة ·

تنكمش الكلاب فى جلدها المنحول ‥ وتكف عن النباح ‥ تتوارى القطط آكلة فضلات طعامه الدسم الملقى على مدخل البيت ·

يلوح لأصحاب الدكاكين ‥ آتيا عبر منتصف الزقاق ‥ يزيدون انتباهها يستحضرون فى أنفسهم ردود السلام للحظة اقترابه · وحين يتلاشى بدنه الضخم شاربه المفتول يعدون أنفسهم لغلق الدكاكين والمسامرة ·

يتلقاه الشارع الكبير بأبوابه الصاج المقفلة · بين الحين والآخر يضيع دبيب حذائه ·· يكتمه صوت السـيارات المارقة ·· تناثر عليه رغام الاسفلت ·· من ماء مرشوش قابع تحت الأرصـفة ·· نفايات ·· علب كرتون فارغة ·· مزق أوراق وأرغفة أقفاص برتقال عطن ··

بطيئا كان سيره ·

يؤنس النفس بذكرى نهار فائت ·· حنون صوته الجهور ·· يحشو أركان بيته ·· ينظم أوقات عياله ·· يرقب بنظرة مستحبة راضية ·· تحركات امرأته البدينة وهى تتبختر فى اجابة طلباته ·· تنظر اليه بعين باسمة ·· جالسا ·· موسعا ما بين وركيه حاسرا عن ساقيه قفطانه وظهره للحائط ·

كل الرجال هو ·· أحسن ما حرث فى أرضها العطشى ·· أروع قلوب العالمين قلبه بدنه ·· بذلته ·· شكله الضخم ·

ابتسم وانتزع سيجارته الثانية ·

يقول بريق النجوم حين تحط على المكاتب والمقاعد الوثيرة ·· آن لكم يارفاق البنادق والبيوت المعمورة ·· أن تحملوا على مناطقكم الأبدان والصحوة ·· فليلنا الطويل تملؤه النفوس المجوجة ·· وتضرب الأكف والأقدام ·· فى ثقة ·· تعظيم سلام ويستديرون ·· يتسلمون البنادق والمناطق ·

يتداخل الصخب العارم بلبل النجوم فى جو القسم الكئيب ·· صراخ الرجال ضعاف الجوانب عند تلاقى الأكف السميكة بالأقفية العارية ·· عويل النساء آكلات الليل تحت وطأة الأسئلة الفجة ·· وينطمسون ·

الثانية عشرة ·· موسيقية دقات الساعة المعلقة بجدار الشقة الصاخب أهلها يقولون فى تحد ساخر :

ـ ها ؟ ها هو قد جاء ··

ـ لم يصل بعد الى هنا ·

ـ أقول لكم انه بالخارج ·

صمتوا ·· خفضوا من صوت المسجل والفيديو ·· أرهفوا السمع لدقات حذائه الثقيل رتيبة ومنتظمة ·

ـ ٢ ـ

ـ المراقبـــون ـ

حين يدخل الحى الراقى ·· يبسط على العمائر كفه ·· يبصر الأركان بعينى الصقر ·· يدب الرصيف بقدمين ثابتتين ·· دبيبا رتيبا متأنيا ·

يناجى فى الصمت الناعس تسرب الكآبة بقـــاعه ·· يمتط الوقت ·· يلمحه آخـر الآتين بعرباتهم الأنيقة ·· كتلة ســـوداء تتحرك فى بطء ·· تبعث شهيقا منتظما ·· يتنحنح يستتب أمن زائد بسكان الشقق السفلية عندما يداعب صوته أجفانهم والنوم · يتنحنح يقولون فى أنفسهم وهم ينطرحون على الأرائك الناعمة ·· يشربون البيرة ·· أو الدواء أو الخمر ·· ويشربون الشـــاى ·· يضاجعون النســوة ·· فلنطمئن الآن جـــدا ·· فلا خـوف يمازج القلوب ·· ولا زائر يدق الأبواب ·· يتنحنح ·

والنسوة الهامشيات ·· بائعات اللذة ·· غاليات الثمن ·· طريحات الأسرة الفخمة يقلن ·· الآن تغمرنا الطمأنينة ·· نجاول الرجال.

بقوة رغباتنا الجارفة المحمومة نلتذ فى لحظـــات الاندماج .. نقاتل جيوش الكآبة فى أعصـــاب الأبدان الشرهة نقودنا بصدور رحبة ورءوس راضية .

أشعل آخر سيجارة .. تنحنح بقوة .

نحنحته تنبىء ما وراء الجدران .. يعمـــــلون .. انه عليم بمطارحات أسرة الخيانة والاثم يدغدغ الجوانب فى الرجال المبحرين بسفن المراسى الغائبة عن مدى البصر ..

يرحلون عبر اليم الهائج .. كم سفنكم يا راحلون مبهرة .. يتوسدها أمان جميل فلن يسمح الشرطى النبيه لأى امرىء اجتياز حدود كونه الليلى .

رأوه من خلال الزجاج الملون فى ظلال صف البيوت المقابل .. متشامخا .. يخطو ببطء غريب .. ملكا للفيلة كان .. يحاوره ظله أينما حل .. فى أنوار المداخل .. عريضا خياله الملقى فوق الأسفلت .. يبتسمون .. ويضمرون بالقلب سرا .

الليل يوغل فى العمق ..

لكنه واثق من أن رأسه لن يأتيه غفوة .. ساعات القيلولة الفائتة تكفى .. زميلا لك يقضى وقت راحته نائما .. يسلم بندقيته ويستلمه السرير .. يغط فى نوم طويل . يسكن الجسم الحمول .. يرغم النعاس على الولوج داخل الرأس .. نوم الساعتين يجعلك نشيطا .. حذرا .. مشدود عصب الدماغ ..

أيضا ابحارك ظهرا فى لحم امرأتك يمسح عن ذهنك التعب .

بين قرع الكئوس وانتشاء الرءوس .. تراقصت وتلوت أربعة أبدان متأججة .. اهتاجت فيها موسيقى الصخب .. تراهنوا .

راقص الأول فتاة الثانى ·

ـ كم تدفع وأجعله بلا شارب ؟

داعبت فتاة الأول صدر الثانى · قالت ·

ـ حرام انه يحرس الحى ·

ـ حى على الفلاح ·

ـ أيحرس الحى بشاربه ؟

زلزل الضحك الجسوم ·· شربوا ·· وراقصت فتاة الثـانى رأس الأول ·

ـ والد حبيبى لم يرسل له هذا الشهر نقودا ·

قضم الأول تفاحا وأخذ من الفتاة قبلة ·

ـ لماذا ؟ أبلاد النفط أفلست ؟

لهى الثانى بجسد فتاة الأول ·

ـ لا يا صديقى ·· حلوا الوزارات هناك ·

قالت فتاة الثانى وهى تداعب صدرها ·

ـ أفضل لكم أن تلعبوا فى شىء آخر ·

قالت فتاة الأول

ـ يمكنكم أخذه الى الشقة وتكبيله ·

اجتذبت فتاة الثانى عنق الأول ·· قالت :

ـ نكبلك أنت ·

ـ أنتم تعلقون أهمية على شاربه ·

امتص الأول شفاه فتاة الثانى ·· قال :

ـ قال لى أبى حين كان يقيم فى هذه الشقة ٠٠ ان هذا الجندى حمل فوق شاربه أكثر من كرسى وزارة ٠

عض الثانى نهد فتاة الأول ٠٠ صرخت فى « ميوعة » سقاها خمرا ٠

ـ الآن فقط أدركت سر اختفاء فتحتى أنفه ٠

ضم اليه البدن الطرى ٠٠ استكانت ولهى ٠٠ نشوانة ٠٠

ـ كانوا كريهى الرائحو ٠

مصلوبا اليلك على الجـدران ٠٠ والذاكرة ٠٠ تزيح تراكم النعاس ٠

جيرانك فيما بين العصر والغروب يحملون اجسامهم المتعبة ٠٠ يجلسون بالمقهى القريب ٠٠ يفرجون عن سأم التواجد بين جدران البيوت والعيال ٠٠ وانت تلتزم قعر بيتك ٠٠ وهم يمنحونك فى رءوسهم أركانا ٠٠ يتوجونك فيها ـ مهابا ـ يحفرون صورتك فى امخاخهم فكيف يتسنى لك الهبوط ؟

فى القسم يتهامس زملاؤك الجنود عند حلول وقت قدومك بأنك آت : بمعان شتى لآت هذه فقط ٠

يتصورك البعض لو كنت بلا شارب ٠٠ يتمنى آخرون لو هلك منك أو يكون معووجا الى أسفل ٠

يخيل لبعض الرقباء انك تمنع عنهم رغبـــة التمتع باطالـة شواربهم ٠٠ سوف تعتقد أنت أنهم يحاولون تقليدك ٠٠ ولا يأكل البعض بغرض السمنة الشــديدة ٠٠ مع أن الله هو الذى منحك طولا وعرضا وشاربا ٠٠ يراه المأمور أحيانا فيخجل لخط الشعـر النحيل المرسوم بين شفته العليا وأنفه الواسع ٠

غشى التلافيف ثقل غريب ·· تهادنت خطواته ·

لكن المأمور بالرغم من ذلك يطالبك دائما بتحضير نفسك لملاقاة عميد القسم ·· ذلك البدين المتشنج الصموت ·· ذى الشارب الكثيف ثائر الشعيرات ·· يتطلع اليك ويضحك ·· يمنحك الجنيه أياه ·

ـ خذ هذا ·· وخذ بالك من شاربك ·

يعلو شاربك ·· يجاوز السقف ·· فى أمكان امرأتك التعلق بطرفيه ·· تؤرجح الناظرين فوقه ·· تبتسم ·· وبلا وعى تفتله أصابعك الصلبة ·

يدعوك المأمور ·· تدرك لما يدعوك ·· ينتفش بدنك ·· تستوعب القسم فيه تشتد أعصابك فتذكر لحم امرأتك السمين ·· تنفر عروق الرقبة ·· فينفر فى قيعان الزملاء الغيظ المكظوم ·

حملات الأسواق فيها أكثر من فائدة ·· تضبط مع رفاق الازالة واقفى الطريق العام من بائعى الفاكهة والخضر ·· ترفع بذراعيك القويتين أية عربة يد فوق ظهر اللورى ··

تثاقلت خطواته ··

للجوف أوقات يمتص فيها أشهى الأطعمة ·· الليل حصانك المدلهم المدلل فارسا كنت وخيالا ·· رغبة الجوف قوية الآن ·· حتما أفرزت الامعاء أطعمة بداية الليل ·· تروض اللحم فوق المنكب ·· ليالى الخمول تواكب رأسك ·· يتباطأ ·

ينتاب رأسك تعب غريب ·· تنحنح بقوة ·· طاردا ما يحشو تجاويف رأسه الثقيل ·

– ٣ –

– الاغتيال –

– قلت لكم أستطيع قهره ٠

قالت صديقة الثانى :

– بنقود أبيك ؟

قال الأول وهو يكشف عن ردف فتاة الثانى :

– برأسى ذاك ٠

قال الثانى وكان ناهضا توا من فوق فتاة الأول :

نشوف ٠

أطفأ بحذائه عقب سيجارته ٠٠ ضرب العلبة الفارغة بطرف حذائه ٠٠ انزاحت بعيدا ٠٠ سار خلفها ٠٠ ضربها مرة أخرى وتوجه نحوها ٠٠ تناولها ٠٠ فركها بكفه ٠٠ القاها عاليـــا ٠٠ هبطت فضربها بكفه ٠٠ ارتفعت وعادت الى كفه ٠

خرق الصمت ورأسه صوت تأوهات صارخة ٠٠ توقف وألقى العلبة فى صندوق القمامة القريب ٠٠ حث الخطى نحو الصـــوت مرهفا أذنه ٠

نافذة بطابق سفلى تفتح وتغلق ٠٠ توقف تحتها ٠

ثمة رجل وامرأة قد هدهما الأرق ٠٠ كانا يشاهدانه من شرفة طابقهما العالى ٠

قاوم صوت التأوهات بصوته المتنحنح ٠

مستمرا كان الصراخ ٠٠ أحدهم يخنق امرأة ٠٠ تحفز ٠

حق عليك اقتحام البيت وانقــاذ روح تستغيث ٠٠ خاصـــة

والفجر يطرق أبواب الليل خبط خشب النافـذة المـوارب بكعب بندقيته ٠

أطل شاب منفوشا شعره ٠٠ عار نصفه الأعلى ٠٠ قال متلهفا ٠

ـ الحقنى يا شاويش ٠

ـ ماذا يحدث هناك ؟

ـ أدخل ارجوك ٠٠ امرأة ترغب فى قتلى ٠٠

أسرع بالدخول ٠٠ حلقته جدران الشقة ٠٠ اعترته نوبة خجل غض بصره ، على السرير المستدير بمنتصف الغرفة جسد عار لفتاة ٠٠ تشير اليه بأصبع رقيق أن يتقدم ٠

قال :

ـ أنا ؟

ـ تعـــال ٠

ـ ماذا تريدين منى ؟

ـ تعـــال ٠

ـ لا ٠٠ أنا أصلى

تعالت ضحكات من وراء باب آخر ٠٠ قال للشاب ٠

ـ من يريد قتلك ؟

ـ هذه ٠

هذه ؟

ـ تريد قتلى ٠

ـ اقتله حبا يا شاويش ٠

ـ ماذا تعمل أنت ؟

ـ أدرس فى كلية الآداب ٠

ـ حين شاهدوا شاربه المبروم عن قرب ٠٠ داخلهم عجب ٠

ـ ماذا تريدين منه بالضبط ؟

ـ أريده هو ٠٠ أن يدمرنى ٠

نظر فيهم وهز رأسه ٠٠ لمح فى التليفزيون القريب مشهدا جنسيا ٠٠ فانتبهت حواسه غض بصره ٠٠ نظر اليهم ٠٠ صامتون ردع نفسه ٠٠ ابتلع ريقا جافا ٠٠ التفت اليهم ٠

ـ أنتم تلهون بى فى وقت عملى ٠

وابتسم ٠٠ فضحكوا ٠

قدم له أحدهم طبقا به شطائر من حلويات ٠

ـ لابد أنك جائع ٠

تناول الطبق ٠٠ واقفا ٠

جاءت طريحة السرير ٠٠ خلعت عن رأسه الغطاء ٠٠ قبلته ٠٠ دهش والشطيرة فى حلقه ٠٠ نظر ٠ تنـاول الفيلم بصره ٠٠ أتاه واحد بصندوق سجائر ٠

ـ لابد انك خرمان ٠

جذب كرسيا وجلس قبالة التليفزيون موليا للباب المغلق ظهره ٠٠ بين المضغ وتحريك الحلق يختلس للبنت نظـــرة ٠٠ يبتسم ٠

قال له الشاب ان عليه بالتهام الطبق كله ٠٠ كانوا يشاكونه

الطبق أحيانا ضاحكين ويقول له آخـر انه شرطى بحبـوح طيب الطوية سليم النية ٠

شكره وقال لهم انهم يحترمونه جدا فى منطقة سكنه هناك ٠٠ وقالت الفتاة وهى تلبس قميصها النايلون ٠٠ انه الآن فى عالم آخر ٠٠ الساعة فيه تساوى ألف سنة فى عوالم أخرى ٠

وشاشة التليفزيون تنهض بكوامن البدن المخبوء الآن ٠ اعتلت الفتاة منكبه ٠٠ ضحك واهتزت جوانبه والشارب قالوا له كيف تصل امرأتك الى شفتيك ٠٠ قال لهم انها تحبه عندما يدخل شعره فى أنفها ٠

قدموا له مشروبا ٠٠ وشربوا معه ٠٠ تجرعه وتجشـأ ٠٠ أحسوا بالتقزز ٠٠ قال فى نشوة :

– يا سلام ٠٠

تناول شاب بندقيته المركونة جانبا ٠٠ شهرها فى وجهـه الصامت ٠

قال فى صخب الآخرين ٠

– أستطيع الآن أن أقتلك ٠

– أقتلنى ٠٠ وضحك ٠

ألقى الشاب البنـدقية ٠٠ ظلوا يضـحكون ٠٠ والفتاة فوق الساقين تداعب شاربه ٠٠ قدم له الشاب الثانى مشروبا ٠٠ سكبه فى حلقه ٠٠ وشربوا هم ٠

مأخوذا فى التليفزيون كان ٠

– يا سلام ..

قال الشاب الأول

– ما رأيك فى مائة جنيه ؟

ضحك وضم ساقيه فارتمت الفتاة على صدره ضاحكة .

– مائة جنيه ؟ أتسخرون منى ؟

– قبلت الفتاة خده السمين .. داعبت شعر صدره القصير .

– مائة جنيه وتقص شاربك .

انتفض قائما .. أزاح الفتاة بعيـدا . كانوا يضحكون .. وكان مبسوطا يضحك . مقلوبا فوق رأسه الغطاء . تناول بندقيته .. شهرها فى وجوههم وضحك .. ضحكوا وهـو ينطلق الى الخارج .

كان الرجل والمرأة فى الشرفة العالية يضـحكان . وكان يرتعد فى الندى المتساقط . فى ضوء الصبح الطالع توا .. عند أول الحى .. وجـده زملاء الليل الآتين من المنـاطق المجاورة .. مقرفصا خلف صندوق القمامة .. متأبطا بندقيته حول ذراعيـه وركبتيه .. ساكنا .. باردا .. بنصف شارب كان وبقية مـن دموع لم تجف بعد .

١٩٨٦

★★★

صـديقى ذلك البعيـد

قلت فى نفسى ·· وكنت أدنو من الشارع النائم فى الرخام · لا تخف ·· كل شىء قابل للكسر ·

وأقفلت زرا من جاكتتى الصوف ··

عاليا كان بيته ·· تقارعه والبيوت المجاورة نسائم ريانة·· تضاءلت فى ·· انتابنى احساس بالتجمد وحتمية الرجوع من حيث جئت ·· ولكن ما قول بعض النـاظرين من الشرفات الموشـــاة بالالمنيوم والزجاج الفاخر وعربات الأرض المركونة ؟
تتحدانى أن أتقهقر ·

ولجت دهليز البيـت ·· رخامى الجدران والدرجة ·· زجاجى الابواب ·· هو رجل وانا رجل وكلنا بنى آدم ·

نظرت فى حذائى ·· متربا هو ولكنه جديد ·· فردت تقلص أصابعى ورفعت بنطلونى ولمحت سـمات وجهى فى مرآة المدخـل الجانبية ·

أقفلت زرا ثانيا من جاكتتى باحكام كاسرا ياقة قميصى المرفوع ظهره تحت ياقة الجاكيت داخلنى شعور بالخجل والحذر · وترقبت نفسى ·· غصت فى قاعى ونظرت فى المرآة ·

أيمكنهم أن يرقبوا حالى ؟ لما أنت متوتر وعصبى وتافه ؟

أراهن على أنهم يرقبوننى من خلف النوافذ ٠٠ يرصـدون تحركاتى لهم أمام المرآة ٠

اليس القاطن هنا صديقك ؟

وربما يلتقطون لك صورا بكاميرات مثبتة فى أركان متفرقة من البيوت ٠٠ وتمضيان الوقت فى مقهى المدينة ٠ تلعبان الشطرنج وترقبان أبدان النساء ٠٠ تقرآن فى أحيان تجلى القرائح القصص وتفرزان فى رفوف المكتبات القديمة الكتب ؟

مضغوطا فى الجاكيت كنت ٠ أحاول التماسـك واصـطناع الثقة والابتسام ٠٠ نز العرق منى أحسسته تحت ابطى ٠ جاكيت ثقيل فى عصر قيظ كهذا لا يمكن احتماله ٠ لكن للضرورة أحكام ٠٠ لما أنت مرهوب ؟ كلكم أموات أولاد أموات ٠ ما من انسان الا وذهب عاريا مثلما جاء ٠

اعتليت درجة ٠٠ درجة حاذرت من اصدارى أى صوت ينبه الدرج النظيف بأننى صاعد أو ايقاظ النائمين ٠٠ فكل ما أرجوه أن تنتهى مهمتى فى سلام ٠

ربما يسألك بـواب عن وجهتـك ٠٠ بالرغم من أنك لم تر للبيت بوابا ٠ ربما يراقبك من بعيد وينتظر أن تقوم بأية حركة مريبة ٠٠ فينقض عليك ٠

ارتقيت أول طابق فى البيت ٠٠ شهقت وسمعت زفيرى ٠٠ فى كل باب عين سحرية ٠٠

لماذا وضعت تلك العيون ؟ ابتعدت عن مستوى العين ٠

يمكن أن يفتح باب ويطل منه صاحبه ليسألك عمن تريد وعمن جئت من أجله وما صلتك به ٠

أتقول له المهندس فلان ؟ وما علاقتك به ؟

قريبي ٠٠ صديقي ٠٠ ولكنهم لا يعرفوه ٠٠ فهو دائم السفر وقلما يجيء ٠٠ ثم الفرق شاسع بينك وبينه ٠٠ انني ٠٠

لكنه صديقي على الرغم من كل شيء ٠

عموما ٠٠ سكان المناطق الراقية لا يحدث بعضهم بعضا ٠٠ وهذا افضل ٠٠ ربما يراقبون بعضهم بعيونهم السحرية ٠٠ من يدري ؟

ولو تجرأ احدهم وسألك ؟ كيف تكون صديقا له بشكلك الكئيب ذلك ؟

في الطابق التالي توقفت ٠٠ مترددا ٠٠ متأنيا ٠

لعنت لحظة اندفاعي أمس حين أكدت له حسب طلبه ٠ حضوري لزيارته ٠٠ ثم انه جاءك في بيتك مرة وغاصت يومها في الوحل قدمه ٠ وشاهدته عيون الفضول المنبثة في الابدان الهشة الملقاة على مداخل البيوت ٠ والابواب يمضغون الحكايات التافهة ويتصنتون في شراهة عمن يكون وعمن كان ٠

فالحد الفاصل بين الحيين شارع يمشي فوق أسفلته النظيف الاتوبيسات والسيارات وقليل من خدم ينزهون الكلاب ٠٠ ويشترون من سوق ناحيتنا الخضر فهي رخيصة الثمن هناك ٠٠ في مكاني من الدهليز لمحت كرسيا للاستراحة ٠٠ قعدت عليه ٠ لكنني انتفضت قائما ، ساويت جاكيتتي ٠٠ كانت هناك زحفة قدم تصعد الدرج ٠ واريت توتري بشد أعصابي وتصلبت منتبها ٠٠

مهما فعلت يا مسكين تبدو عليك سمة اللصوصية وأفعال المحتالين ٠٠ غريب أنت فى الكون المراقب ٠٠ عليك بالصعود بسرعة ٠٠ أو الهبوط بسرعة ٠٠ وفى كلتا الحالتين مهزوم أنت ٠

غسلنى عرق ٠٠ نظر الصاعد فى وجهى ٠٠ شملنى بنظرة جانبية متفحصة ٠ نظرت فيه متحديا ٠٠ لم لا يكون هو اللص ؟ فما أكثر اللصوص الآن ٠٠ لكنى أفسحت له الطريق وصعدت السلالم خلفه لاثبت له اننى مثله اصعد لرقم تسعة ٠ لكنه التفت الى وبدأت قدماه تأكل السلالم فأكلت قدمى السلالم خلفه ٠

فى الطابق الثالث توقف وحدق فى بنظرته الجانبية ٠٠ أخرج مفتاحا رشقه فى ثقب الباب ٠٠ كنت قد جاوزته وهو يفتح الباب ويولجه ناظرا فى شكلى المنبعج المحتال أشعرنى بالغيظ والتعب ٠٠ واحتمال المشاق ٠٠ فأحكمت الزر الثالث من الجاكيت ٠٠ كان ينظر الى من فتحة باب الشقة وكنت أنظر اليه من فوق السياج وأنا أصعد الدرج ٠ بأدب وحذر قرعت باب صديقى القديم ٠٠ تجنبت العين السحرية وأنا أعدل جاكتتى المبلولة « بطانتها » ٠

فتح ودعانى للدخول الى كونه العظيم ٠٠ تقوقعت داخل نفسى ٠

اقتعدت فوتيها مذهب المساند وناعما ٠٠ واجهتنى ألوان ورق الحائط والنجفة المعلقة والبساط المنفوش وبره ٠ كان يجب أن تخلع الجزمة ٠

أتانى بأكواب مفضضة وشايا خفيفا ٠

أهو صديقك حقا ؟ هذا الجالس قبالتك ؟ ابدا ٠ الآخر اكثر رقة وتواضعا ٠ مهزارا ٠

وتحدث ٠٠ دعته يتحدث ٠٠ ضحك ٠٠ وتحدث وضحك ٠

وتحدثت بحذر وتحفظ وحرص وابتسام ٠٠ تقلصت عـــلى حافة مقعدى ٠٠ رشفت الشاى بدون صوت ٠٠ أشعلت سيجارة فقام وفتح التكييف ٠

نظرت اليه وهو يتحدث مستمعا غارقا كنت فى شـــوارع ناحيتى المستفحل فيها الطين حتمية ذهابى قبل استغراب الكلاب النواحة لى ليلا ٠

كان يقول ٠٠ يقول :

وجدته أمامى واقفا يحمل صورة ذات اطار كبير بهت طلاؤه الذهبى ٠٠ أتى بها من الغرفة الأخرى حيث سمعت فيما سمعت أصوات أولاده الهامسة ٠

أطلعنى على الصورة وقال :

ـ هذه صورة أبى ٠

هززت رأسى متعجبا ٠ قال :

ـ اخلع الجاكيت ٠٠ الجو هنا لطيف ٠

ـ لا ٠٠ آخذ بردا ٠

نظرت فى الصورة وألقيت على مسند الفوتيه ظهرى :

ـ لم لا تخلع الجاكيت ؟ يا رجل هذا بيتك ٠

ـ لا ٠٠ هكذا أفضل ٠٠

ـ لقد مات ٠٠ الله يرحمه ٠٠

رجل عجوز ٠٠ له شارب كث ومنكوش ٠٠ حاجبان عريضان وبشرة سميكة مخشوشنة كبشرة أبى الذى قتله التعب ٠

شدتني هذه الطاقية البيضاء المكسرة ·· قفطانه الصـــوفي يكشف عن شعر صدره الغزير ·· بارز العظام كان ·

تخاذل في بدني التوتر المنبعج ·· إبتسمت ·

ـ رجل مكافح ·· حين آن لي أن أنصرف ··

أخذت صديقي في صدري ·· وصافحته ··

هبطت الدرج قفزا بحجـــة مشاغلي ·· وأسرعت الخطى ·· أسرعت حتى اذا جاوزت الشارع الفاصل ·

بين الحيين ·· خلعت جاكتتي ·· وسرت أتخطى مناطق الوحل بقميصي المرقوع ··

١٩٨٤

★★★

شوارع تنام من العاشرة

امرأتك غابت .

(ماذا تقول عنى الآن) .

تمتطى صهد الاسفلت المتصاعد ، تجتاز قصار البيوت ، وأعين الباعة الجائلين ..

(يارب .. يارب) .

فى نتوءات الشوارع تتعثر الأقدام ، تتبدل والشبشب يثير الاتربة .. بحثت عنك طويلا حتى وجدتك .. (ماذا يفعلون هم الآن ؟) .

خفقات الخوف تتعالى .. خالط الخوف أمل واه .. يجهض فى قلبها الحلم كلما استشعرت بعد المسافة بين القسم وهى تمتطى الشوارع .

تحت ابطه المعروق بنطلونه القديم . .بيوت تلبس الكآبة .. عيون تحمل الفضول رقاب تشرئب وتستدير فى النواصى (كم قلت لك أن تكف) .

تهز رأسها المنكوش فى أسف حزين فيهتز البدن فى ارتجافة صوت فرملة الى جوارها وتواصل العدو ٠

امرأتك غابت ٠

(صدقينى هذه آخر عملية)

والبنطلون تحت الابط ملفوف يحوى رائحة القلب المضطرب ٠

(كبر العيال ٠٠ وانت) ٠

الشمس وعرق العنق ينداح ما بين النهد والنهد رجراجبن ٠

(فى كل مرة تقول انك ستكف) ٠

وليأتون اليك ٠٠ كأنهم يعلمون أنك بلا مال ٠٠ يقدمون اليك الحقيبة وتركب قطارا تجوب البلاد ٠٠ وحين الاياب يضم الفراش بدنك وهى وتقول انك ستكف ٠

فى الصباح ٠٠ تصاعد الى الشقة صياح البقـــال ٠٠ دق القلب بسرعة وانقبض بصقت فى فتحة الصدر واستكانت وأطلت فى روع ٠٠ كان البقال يعاود النداء ٠٠ زوجـــك فى القسم ٠٠ التليفون ٠٠ غريب ٠

قال ٠٠ هات البنطلون القـــديم ٠٠ قســم العطـــارين ٠٠ محجوز ٠

شوارع تضيق ٠٠ تختنق ٠٠ بيوت تلفظ العيال ٠٠ رجال يركبون الدهشة ٠٠ تعدو لا جدوى لاشارات العربات مارقة ٠٠ تستحلب الهدوء ٠٠ عرقل الشبشب القدم فخلعته ٠

امرأتك غابت ٠٠ لم يعد فى الوقت سوى ساعة ٠

(أيمكن فعلا أن تأتى) ٠

تعدو

« أيمكن أن تكون قد ضاقت من أفعالى » ٠

رفعت اليد الخالية من البنطلون ٠٠ اشارت للعربات المارقة بفردة الشبشب ٠٠ لم يبال من رأى ومن لم ير ٠٠ أخذته الدنيا كانوا يهرعون الى الارصفة ٠٠ كأنهم يتسابقون يتصـــارعون ٠٠ يتقاتلون بالاكتاف والاصوات والابواق والنهم ٠

وتعدو ٠٠ حين استطلعت الخلف المقطوع ٠٠ وقلبهـــا ٠٠ رأتهم جمعا من الناس يجرون خلفها فى محاولة أن تكون بينهم وبينها عدة أمتار ٠٠ ارتاعت ٠٠ وضعت البنطلون بقوة وأسرعت ٠

من طاقة باب الحجز بالقسم أطلت ٠٠ عيونهم ٠٠ ثقة واهية وخوف يقاوم المجهول تجهمت قسمات المعلم عرفان الذى طـــوى بجيب ساعته حارس الباب ٠

ـ زوجتك غابت ٠٠ أيمكن أن يكون البقال نسى ؟

ـ اطمئن ٠٠ سوف تخرج منها صدقنى هذه عملية سهلة ٠

كانت تعدو ٠٠ وناس الخوف فى الخلف يعدون ٠٠ تتأبط البنطلون : سوف تأخذونه أكيد هم يريدونه ٠

ـ المهم أن تفعل ما قلت لك ٠

٠٠٠٠٠

ـ بيتك فى رعايتى ٠٠ ان قدر الله ٠

كلمات معسولة يكمن فيها التهديد ٠

(بل قل ان البيت فى قبضتك لو قلت عليك ورجالك لكـن لم تومض بذهنى تلك الفكرة) ٠

ـ حاول أن تكون جادا ٠٠ لا تخف من كلام المحقق ٠

تنـاولت الحقيبـة ·· كورت بدنك المقتـــول وبيتك المحصن بزاوية منها مظلمة ·· قبعت هناك فى استكانة الناوى على التوبة والبقاء فى قاع الدنيا أمثال النائمين فى صمت التعب على كراسى المقاهى والجوامع بعد الدوران مع طواحين المدينة ·· تحت الاجفان وضعتك الزوجة ·· فبقيت بحقيبتك ثبت أقدامك خوف عارم ·· وكانت تبكيك حين تولى النفس شطر الخارج وتودع الاجفان بليلها الطويل ولا فى النهار تستكين فألسنة العيال من الحلوق المستريبة تلفظ الدهشة والسؤال عما يكـــون عملك فالصـــحاب يسألون ويقولون فى المدارس والمعاهد انك من موظفى المساحة · والجيران يقولون ان لك فى بلد آخر بيتا وامرأة أخرى فتحتويك الأجفـان داعية لك بسلامة الرجوع ويتهامسون عندما يتزاورون فى المغارب ·· وحين يتناولون سير الناس ·· فزوجة فلان السمكرى اضافت الملون وخليل امرأته وضعت وسيد النقاش ابنه مات وحسين الموظف أضاف الفيديو من أين لا يعلمون وعبد العال الطرشجى اشـــترى سيارة وام خليل ضربت فضيلة امرأة فؤاد ·· وتجوب الحوائط العيون التساؤل ·· مقتنيات البيت · كانوا يعتقدون بأن بالحقيبة ثياب السفر ولست انت ·· استطال عليك الزمان وهم ·

كان الجفن ينوء صاحيا ·· يتجمد الدمع فيه ·· يزوى بريق محجره لطول السهر فقلت بأنك تارك الحقيبة لتكف الألسنة عن السؤال ·· وانك نويت ·· لكن ·· فكيف تنوى ·· كيف تكون والبيت النائم فى نعيم الكفاية ·

أترجع لمسح عربات الأتوبيس المركونة ليلا ·· ترزخ تحـت وطأة هموم المال والشبح ؟ وامتصاص الليالى الممطوطة والزمن فى بدن الزوجة الممتلىء الآن ببيـــاض شـــمعى يسر الناظرين · يذهب الساعد البض والسلسلة الصـــدر المرفوع وخاتم الأصبع الحـــلوة

وقرط الأذن المحمرة تحت الشعر الملفوف بايشارب حريرى طيب الرائحة والشكل ۰ فوق الوجه البيضاوى الناعم المطلى بجمال الرب ۰۰ ذى السمة الحزينة فى قلق ساكن ۰

امرأتك غابت ۰۰ نصف ساعة لم يتبق سوى نصف ساعة ۰۰ أخرجت نفسك من أركان الحقيبة ۰

ــ أفهمت ما أقول ؟

لكنك دخلت قيعان الجيوب ۰۰ حشوتها بالبضاعة قطعا ۰

ــ افهمنى ۰۰ كف عن سرحانك ۰

حملتها العيون المتسارعة ۰۰ دفعها دبيب الأقدام المهرولة بخوف أكبر ۰۰ بانفساح الشارع تزداد عدوا ۰۰ ينداح العرق فى غضون الوجه الشمعى المذعور ۰ يتفصد ۰۰ تتصدع جدرانه ۰۰ تتفصد أبدان أبنـاء ليالى الحب الشبقى العـارم فى أركان البيت فى حزن ۰

احساس بالوحشية يمور بالقلب المركون على جذع الزوجة ۰۰ جف الدمع فى المآقى لو تدرى ما يخفيه الغيب لبكت وارتاح الجفن الناشف والقلب المقروح ۰ لم يفصح طالب التليفون عن مكنون الأمر سوى أنه يريد بنطلونا قديما بلا جيوب ۰

حين هدها التعب تعثرت ۰۰ تســاقطت ۰۰ توقف الجمع الخلفى بعيدا ۰ نظروا اليها ۰۰ حين حاولت النســوة الاقتراب منعهم الرجـــال ۰۰ عندما قامت واصلت العدو فانطلقوا يعـدون خلفهـــا ۰

أمس كان بنطلونه فوق بدنه ۰۰ بنطلونا جـديدا غاليـا له جيوب واسعة وأخرى سحرية لم يكن يحمل حقيبته ۰ لف المدينة ۰۰ وقبيل الغروب عاد ۰۰ اقتعد مقهى الحى المجاور كانوا يعرفونه فى الأنفوشى وفى السبالة وسوق السمك كما يعرفون ذويهم ۰۰

يعرفونه طيبا وبشوشا . يلقى النكات فوق الأرض قبل مرور الناس .. يتلقون سلامه وكلامه . ومكنون الصدر الهامس بحديث خافت عن أنواع بضائع مضروبة وزمن خلا من ضمائر تجار الجملة .

وتحوى أكف الناس الشريبة فصوص الأفيون ويهزون رءوس الاستغراب حين يرون نوع الحشيش .. ويذكرون أزمنة خلت .. كان القرش فيها بعشرة قروش .

بكت .. وتتوالى المسافات .

غابت جدا .. لو كانت تريد المجيء .. كانت جاءت .. لم يعد من الوقت سوى ربع ساعة .

كان حديث الناس الشريبة يتلاقح فى دوائر أصحاب الأمزجة المنتعشة عن ضابط جديد وفد على المكتب يجوب الشوارع والميادين . يباغت الجلوس فى المقاهى المشبوهة .. يلبس الجلاليب ويمشى فى الأسواق مرقعا وحافيا .. يقتعد الأرصفة ومداخل المراحيض ويتخذ من الشحاذين المتواجدين على أبواب المرسى أبو العباس أصحابا ، كانوا يعرفونه يراقبونه .. يبعثون خلفه الصبيان ، ويتوجسون منه .

بدأت الرءوس تولى الأبدان شطر سطوح البيوت حيث الأمان .. والهواء الطلق وادارة الجوازات براحة ومزاج حتى خلت المقاهى من قاعديها ، انطوى على نفسه شارب الشاى .. والتزم بيته لاعب القمار .. ونام مشاهد تليفزيون المقهى مبكرا وبقى الرجل الغائب جليس الناحية ينظر على النواصى فى قرف يتحسس جيوبه حاملة الدواهى ويبصق على الزمن المغيظ والحنق .

وحين يطول جلوسه فى المقهى الفارغ ، يتأسف الساقى بقرف

مصطنع عن زمن تغلق فيه المقاهى فى العاشرة وبيات المعلمين فى المغارب كالفراخ ٠

ويمضى ٠ حين تنام المدينة ويفترش الصمت الشوارع ٠٠ شوارع تنام من العاشرة ، فى الجيوب أيضا تنام البضاعة ٠

أجاء لنظافة المدينة ، كان غيره أشطر ٠٠ قال فى نفسه ٠٠ وتبتلعه الليالى وتزدريه النهارات ويأخذه بيع القطاعى ٠

يبـدو ألا فائدة هناك ٠٠ المـرأة غابت ولا يمكن أن تذهب عريانا ٠

فى تلك الليلة ٠٠ اقتعد مقهى كوم الدكة ٠٠ أتاه الساقى بالشاى ٠٠ همس فى أذنه بالكلام السريع ٠٠ بأن الجو يغشاه الغيوم وفى المكان وجوه جديدة ٠ ترك كوب الشاى جاب النواصى بنظرات مختلسة ٠٠ ونهض ٠٠ ولج أول زقاق ومد خطاه ٠٠ امتدت من خلفه خطوات دبيب حذائه يتبعه دبيب آخر ٠٠ اتجه الى شارع الاسعاف ٠٠ كان الليل أكثر هدوءا لم يكن بالشارع سوى حراس بلوك النظام ٠٠ تجاوزهم ثم انطلق يعدو قابضا على جيوبه ٠٠ وكانوا خلفه ٠

وبعـد ؟

ضمت مرفقها على البنطلون ٠٠ كانوا خلفها بنفس المسافة البعيدة ٠ (لن تأخذوه منى ٠٠ لن تأخذوه منى ٠٠ الآن ينتظرك خلف القضبان مكان ٠٠ كم من السنوات سيكون لك ؟) ٠

استكان قلبه لقدر خفى ولتعليمات رجل خرف ٠

كيف يبرءونه وقد انتشـلوه من بضـاعته ؟ أخـرجوه من جيوبه ٠ قابعا كان بقاع الجيب لم يفكر فى القاء نفسه من نفسه ٠

كان يجوب حجرة الحجز مستسلما ٠٠ قال لحارس الباب ٠

ـ أريد الذهاب الى دورة المياه ٠

زمجر الحارس ورفض ٠

همس المعلم فى أذنه ٠٠ طواه فى جيبه ٠ قال الحارس وهو يفتح الباب ٠

ـ الدورة على اليمين ٠

فى دورة المياه خلع بنطلونه ٠٠ راح يمزقه قطعا قطعا ٠٠ ألقى بها فى عين الدورة وفتح عليها المياه وخرج بلا بنطلون ٠

ـ يبدو أن المرأة لن تجىء ٠٠ كلها دقائق وتذهب للنيابة ٠٠

تحرك مفتاح الباب ٠٠ تساقط قاعدا ٠٠ قال الحارس :

ـ انت عرض على النيابة ٠

اختفى المعلم واختفى آخر أمل فى وصول البنطلون ٠٠ سيق الى ردهة القسم ٠٠ عاريا نصفه السفلى ٠٠ توقفت العربة الكبيرة المقفلة بباب القسم ٠٠ تحوى بجوفها المظلم بعض المتهمين ٠

كانت امرأته تلفظ آخـر ما تبقى فى صدرها من أنفاس ٠٠ ارتكنت جانب العربة متطلعة الى أبدان الجمع الهائل فى الخلف وقد أحاطوا بالعربة ٠٠ رجالا كانوا ونساء ٠

صاح هو حين اقترب من باب العربة الخلفى ٠

ـ أتيت بالطعام ؟

لم تفهم ٠٠ ناولتـه البنطلون بين الدهشة والروع ، دفعـه الحارس الى داخل العربة ٠

كان الجمع المحيط ينظـر في صمت ·· حين تقاعدت ·· حلقوها كانت تعرف وجوه الجيران فيهم ·

فتح المحقق المحضر ·· نظر فيه قال :

ـ انت تاجـــر ؟

ـ أبدا يا بك ·

ـ بيـــاع ؟

ـ أبدا وشرفك يا بك ·

نهض المحقق ·· صفعه وجلس :

ـ رد يا ابن ··

ـ يا بك ·

ـ أنت بيـــاع ؟

ـ أبدا يا بك ·

ـ موزع ؟

ـ أنا مساح يا بك ·

ـ مســـاح ؟!

ـ أمسح الأوتوبيسات بالليل يابك ·

ـ هذه المخدرات تخصك ؟

ـ أية مخدرات يا بك ·

ـ استعبط ·

ـ أنا ·· أبدا يا بك ·

ـ المخدرات تخصك ؟

ـ وشرفك ٠٠ ما تخصنى يا بك ٠

ـ كيف وصلت الى جيبك ؟

ـ أى جيب يا بك ٠٠

ـ أتسألنى أنا ؟

نهض المحقق ولكمه فى صدره ٠

ـ هذا القرش يخصك ؟ اعترف ٠

ـ أنا غلبان يابك ٠٠ ولا أعرف شكله ٠

ـ كيف قبض عليك وهو معك ؟

ـ لم يكن معى يا بك ٠

ـ تقصد أن الضابط كذاب ٠٠ ألم يقبض عليك وهو معك ؟

ـ هذا الضابط قبض على وأنا خارج من السينما ٠

ـ السينما ؟!

ـ نعم يا بك ٠٠ أنا لا أعرف شيئا عن شكل المخدرات ٠

ـ هذه المخدرات تلزمك وأنت متلبس بها ٠

ـ بشهادة من يا بك ؟

صمت المحقق ونظر فيه ٠٠ قام ودار حوله ٠٠ ثم جلس :

ـ بشهادة أنها كانت فى جيب بنطلونك ٠

ـ هذا البنطلون ليس له جيوب يا بك ٠

ـ وبعد ـ ؟

ـ ها هو بنطلونى يا بك ٠٠ كيف أضع فيه حشيشا ؟

ـ هـا ؟!

هز المحقق رأسه فى أسف وأغلق المحضر ٠

مسـألة التفـاح

طرق الباب طرقة ·· فركت يداه نفسه المنكفئة · وتغاضى · قال في نفسه ··

ـ ربما انفثأ الغضب فيهم وأصبحوا الآن هادئين عما كانوا عليه صباحا ·

انفتح الباب عن جسم أخي زوجته ·· نظر في يده المفروكة ·· لكمه في صدغه وأغلق الباب ·

فرت من اليد نفسه ·· انطوى ·· دحرجته السلالم العشر ·· انكمش بدنه وتلوى ·· وتلوى ·

عنـدما استقر به الحال فوق البسطة ·· أفاق رأسـه من الدوار ·· ارتخت فوق الأرض نفسه ·· كأن ما حدث لم يحدث ·· قال :

ـ فلنكرر المحاولة ·· نعم ·· ربما يرضون عنك . يشفقون عليك ·

تحـامل بدنه المخـذول فوق نفسـه المخزية ·· أرهقتـه السـلالم ·

طرق الباب ·· جفف عرقا نز من الجبين بكمه ·· وطرق الباب ·· ضم فى القلب حزنه وفى القبضة قلبه ·

ــ ليس معقولا أن يكرروا ما فعلوا ·

فتح الباب عن جسم حماته البدين ·· طويل القامة ·· معجون الوجه بالجهامة تطلعت فى قسماته العرقانة وكمه يجفف العرق ·· لكمته فى رأسه المنكوش ·

تلاقت كفه بالحائط ·· ارتطم ·· اعتدل ·· وانطوى وتساقط بين الدهشة والتماع عينيه المذعورتين ·· دحرجته السلالم ·· فارغا كان رأسه ·· أسلمته السلالم للبسطة ·· وحين استقر به الحال ، انبسطت فوق الأرض نفسه ·· أفاق رأسه من الدوار ولم يعد فارغا · تفاقم التخاذل فيه ·· قالت نفسه المخزية :

ــ كل النساء يفعلن ذلك ·· ما بال الحموات ؟ لا ضير من تكرار المحاولة ربما يكونوا استراحوا الآن ويرضون عنك ويفتحون الباب ·

لكن الدوار بالرأس كان شديدا ·· وصاخبا ·· وعتيا كان بالقلب ·· البائع ·· انطوت نفسه ·· والليل عليه ·· يغزو تلافيفه المفروكة ·

ــ ١ ــ

عيونهم دائمة الخواء ·· تلف العربة ·· تحدق ·· يركعون على السيقان للتفاح ·· قال فى نفسه :

ــ ماذا يفعلون أولئك البلهاء :

ويتابع سيره الرتيب ·· يأخذه الشارع ذو الحوانيت المقفلة صباحا ·· تحويه بناية المصلحة بشكلها الكالح ·· يستوعب

رأســه ملفــات الناس الواقعة على سلم المعاش ·· يتهدم بنيانه المصوص ·

فى الثانية ·· يصيب التراخى البدن ·· تلفظـه ممرات المصلحة فارغة المكاتب والجدران ·· يتلقاه البــاب الخارجى العتيق ·· يقذفه الى الشارع والحوانيت المفنجلة العيون والمقروحة ·· تفصص قواه الباقية شمس الظهيرة ويغسله العرق يتفيأ ظل البيوت العالية · يتنشق « هبو » مداخلها البارد ·· يبتلع ريقا جافا ·· سائرا ·· يتلقى لهب الشمس الساقط ·· يلتمســه فى الجورب الصوفى · عند بوابة البيت القديم ·· يجثون ·· ما يزالون على السيقان ·· يتطلعون بأعين نهمة لعربة التفاح ·
ثلاثة أهرامات ·· يحرسها البائع الصعيدى المبتسم ·

ابتلعوه ريقا ناشفا ·· ولم يحولوا العيون ·· تجدهم عند الاقتراب الشديد ورقة من الكارتون المصقول · مثبتة فى نصف عصا من الجريد وضعت فى منتصف الاهرامات توقف فى منتصفها الرقم الضــــارب فى القلب (٣) كمنجل معقوف سيحش رقاب القادمين بلا مال ·

هناك فى الثالث والسبعين ·· انقصف نصفين ظهره ·· نصفا فى الشط الغربى كان ·· ونصفا فى مياه القنال الدامى يزحف فوق القارب المطاط تحت النار ·

ثلاثا يطلقهم لسانك المتآكل ·· يذهبن بك الى راحة الرصيف الأبدية ·

ساخرا كان ·· ينظر اليهم ·· عاوجا شكله المضروب بشحم العجلات ·· مطواة بثلاثة نصال تحت ظل حرف الـ « ج » ·

يرقبونه – ملوك الدور الأول – يركبونه ٠٠ يبثون الرهبة فيــه ٠

ثلاثة يكونون عالما مرذولا ٠٠ عائلة ٠٠ يتوجون كيــانه بنظرات الكآبة والتعاسة وخيبة الأمل والغيظ ٠

فى الأرض ثلاث خصــــال ٠٠ أن تكون مقوســـا ظهرك ٠٠ جبنا وتسليما ٠٠ أو تكون مرفوع القامة شجاعا ٠ أو تكون بين هذا وذاك منافقا ٠٠ ماذا يفعل أولئك البلهاء ؟

يحلم بانسياب السلالم من تحت قدميه المتعبتين ٠٠ يدق البــــاب ٠٠ يفتح أناس ضـــجرون ٠٠ متبــرمون ٠٠ تزدريه نظراتهم الجانبية العرجاء ٠٠ تلعن فى السر والعلن يديه العاريتين المتهدلتين الى جانبيه كمقشتين عفا على رونقهما الزمن ٠٠ تقصعت بحلق امرأته اللبانة وقالت :

– لا تفكر ٠٠ مجرد التفكير ٠٠ أن أفعل مثلهم ٠

انتقى من الصالة كرسيا واطئا ٠ وضع عليه نفسه المتحفزة فى كتمان ٠٠ اهتز اللحم السائر فوق أرض الصالة ٠٠ بتعمد سافر ٠٠ حماته ٠

– أبدا ٠٠ لن يحدث ولن نفعلها ٠٠ أمجانين نحن ؟

هذا ما ينقصنا على آخر الزمان ٠

تشرب الجسم العرق وجف الريق ٠ لكنه ازدرده ٠

أفرغ رأسه المنزوع من الملفــات والشمس والتفاح وللهم المقبل ٠ وجسم الأخ الفارع الطول ٠ ملقيا كان بطرف الأريكة ٠٠ يمتص فى عود من القصب ويقول :

أختي ؟ لا يمكن ·· كل شيء على حساب الزوج ·· وما نحن الا ضيوف سقطت بيوتنا وضاعت أمتعتنا ·

وامتص المستفحل بدنه قصبه ·· اقتنص بين الهمهمات والمصمصات لحظة صمت ليقول :

– يا جماعة افهمونى ·· ان لم نأكل تفاحا لن نعيش ! ·

– نحن فقط الذين لانأكله ·

أغلقت الحماة حلقها ·· قال هو :

– هذا البائع يحاول اغراءكم بتفاحة ·· وعلينا أن نقاطعه ولا نقترب منه ·

تعوج وجه الزوجة وهى تقول :

– يا سلام يا أخى ·· ناصح ·

– سيخطب لنا ·· ناقصة ·

وامتص قصبة بصوت أشعره بالغثيان · لكنه قال :

– انه يحاول بكل الطرق أن يشد اليه انتباهكم حتى لاتهنئوا بلحظة تفكير سليم ·

هرشت الزوجة فخذها العارى ·

– وفيم تفكر ونحن مبسوطون هكذا ؟

قال فى حماسة ··

– لا يمنحكم فرصة التفكير فى الشراء أو عدم الشراء ·· بتواجده يجعلكم مشدودين اليه ·

– الطعام أيضا تريدنا أن نمتنع عنه ؟

ـ لو فكر كل هؤلاء البلهاء الواقفين صاغرين بلا شراء والأغبياء الذين يشترون لكان سحب عربته من على قمة الرصيف بعيدا عن الحارة ٠

ـ أتريد قطع عيشه ٠٠ عجايب ٠

ـ سوف يضع أصابعكم تحت أضراسه ويجعلكم تحت سيطرة أنفه الافطس ٠

والحماة تقول :

ـ مغتاظ ٠٠ مغتاظ ٠

ـ فكروا لو استمر الحال هكذا ٠

ـ نيله ٠٠

ـ يا عم غور ٠

ـ لو يملك رجل ثمن شراء الكيلو ٠

حكت الزوجة أظافرها ٠

ـ كلهم يملكون ٠٠ أنت فقط الذى لا يملك ٠

ـ غـيرة ٠

يعلو اللغط ٠٠ وصوته المبحوح مرتدا كان بصدره يفح ٠٠

(يجب عليكم أن تقاطعوه) ٠

شدت النافذة انتباه الزوجة ٠

(أن تلفظوه من رءوسكم) ٠

زاح المستفحل بدنه مصاصة القصب بقدمه تحت الأريكة ٠٠ وانتفض واقفا ينفض ثيابه ٠

(تقاطعوا سيارات ملاك الأرض المزيفين من الاقتراب) .

زحف البدن اللحمى الكبير نحو النافذة .. تقاطر لعابهم .
(وأنتم هكذا ساجدون) .

سار المستفحل نحو النافذة .. أطل برأسه .

(تحلمون وتستبشرون بيوم آت .. ستأكلون فيه تفاحا)؟
عادوا اليه قائلين :

– خائب ..

– جبـــان ..

– لو كان الرجال مثله .. يتكلمون فقط .

– لخربت الدنيا .

حركه اللغط الدائر برأسه .. أطل من النافذة .. صاح :
– يا قوم . يا قوم .

فى سكون .. مقعيون .. ينظرون .

– أيها البائع المتجول العفن .. لن أشترى منك ولو كان لى ملء الأرض ذهبا .

من قفاه سحبته المرأة الشمطاء .. كور الحنق الكامن بصدر الأخ قبضة يده الصماء لوح بها فى وجهه ضجرا .. قال :

– نحن لن نهبط .. لن نهبط .. أيها البخيل .. سوف تأتى به أنت .. احتقن وجه الزوجة .. كادت تلطم الخدود .

– يا فضيحتى يا ناس .. أتريد ان يقولوا عنا مفلسين .. لا نملك حق شرائه ؟ وفتحوا الباب وزجوا به خارجا .

رطب العرق ورجه الراس من نفسه الثائرة ·· دحرجته السلالم ·· قالوا :

ـ لن تدخل الشقة بدونه ·

وأغلقوا الباب ·· حين استقر به الحال فوق البسطة ·· قال مع افاقة الرأس :

ـ هذا يحصل مع أحسن الأزواج فى العالم ·

ـ ٢ ـ

فى الحارة التقطته الأنوف المشمئزة ·· المعقيون يهزأون ·· فصل بجسمه جانبا من الأنوف التى تملكها الغضب ·· زامت الشفاه فى صمت · قال :

ـ اسمع يا عم ·· عليك بالرحيل من هذا المكان ·

المقعيون جرجرته أنوفهم المشمئزة · تفتحت أبواب سيارات أرتكنت بداخلها الأكياس ·· رجال منبعجون فى الكراسى ·· يدفعون للبائع المبتسم فى انتشاء ·

نظر البائع فيه ·· قال :

ـ ماذا تقول ؟

من خلف الأفواه المشدوهة قال :

ـ لماذا لا تبيع شماما أو بطيخا أو عنبا ؟

ـ أنا أبيع حسب طلب الزبون ·

ـ أنت تقلب علينا المواجع ، يجب أن تذهب بعيدا ·

قال البائع فى غيظ مكتوم ·

ـ أنت أهبل ؟ أم تراك عبيطا ؟

في الطريق لمح خدود البنات تفاحا وخدودا أخرى امتص رونقها الوقوف على محطات الترام ٠

قال في نفسه ٠٠ فلأشك عائلتي أولا للبوليس على طردي وبياتي فوق البسطة ٠

أعد لسانه ٠٠ كان الضابط المنكفيء بقفاه بظهر الكرسي الهزاز يقضم تفاحا ابتلع لسانه واستدار خارجا ٠

قال في نفسه ٠٠ لن يطهر الحارة من هذا الوباء الواقع بها سوى وكيل وزارة المصلحة فهو طيب ومتسامح ويمكنني عرض اشكالي عليه فبيده حل أزمتي ٠

في رحاب غرفة المكتب الوسيعة ٠٠ تقاعد الموظفون ٠٠ الفئران الطيبة ٠ يأكلون الدفاتر ويلوثون ثيابهم بالأحبار ٠٠ وينظرون في كل حين الى الساعة المعلقة ذات العقارب الكبيرة التي تمتص وقتهم في بطء بالغ ٠

ينفخون ضيقا ويأكلون الدفاتر ٠

جابههم بنظرة شاملة من تحت دفاتره ٠٠ حاول انتزاع عيونهم التي تمتصها العقارب ٠٠ قال للرجل في المكتب المجاور ٠

ــ أتاتي معي لنصعد الى المدير ؟

قال جاره :

ــ مسألة التفاح ؟

ــ نعم ٠٠ هي ٠

ــ لا ٠٠ امرأتي اشتركت مع جارة لها في ثمن كيلو ٠

دفن في الدفاتر رأسه ٠

وحاسة السمع الرقيقة كل الرقة لدى الفئران تحولت بوعى شديد الى المتحدث حتى اذا انتهى انتقلت بكل ثقلها العائد توا الى الساعة ٠٠ ثم الدفاتر ٠

قرع باب وكيل الوزارة وانتظر ٠٠ أتاه الساعى فى أدب جم ٠٠ طلب منه المقابلة دخل الساعى وخرج ٠٠ كان الوكيل يلوك فى الحلق شيئا ٠ قال فى نفسه انه يمضغ « المضغة » التى عرفناه بها منذ جاء الى المصلحة قديما ٠

أشار له أن يجلس ٠٠ ثم بصق من حلقه بذرة تفاحة ٠٠ قال :

ـ أية خدمة ؟

ـ ٣ ـ

أحس بالمرارة ٠٠ نهض مرتبكا ٠٠ شكره وخرج ٠

سكنت فى الراس الشمس ٠٠ توكأ على تعبه ٠٠ أسلمه الشارع للحارة ٠٠ أقبل استمات فى الوسط المحلق واقفا ٠

قصمت ظهره النحيل نظرات العائلة المطلة ٠٠ واثقا بانهم يرقبونه ٠٠ يكشرون عن أنياب الغيظ المقيت ٠٠ يعدون له العالم لو أقبل فارغا ٠ استقام فى المكان ٠٠ نفض تعبه ٠٠ علم هواجس قلبه ٠٠ أودعها التلافيف مع الشمس قال للبائع :

ـ ياسيدى البائع العظيم ، لسنا من خازنى المال أو جامعيه ولا خاضعين نحن لفهم ما تبيع ، فلتزحف ٠٠ نرجوك ببضاعتك عن قمة حارتنا ٠

والعيال العابثون ٠٠ فى لهوهم الملول ٠٠ يرتقون ظهور العربات المركونة ٠٠ والرجال المضعضعون يلهثون فى صمت

ويحدقون . يبتلعون الريق .. والنســاء فى ظـل الشرفات والرصيف يزدردن حسرة الزمن الخائب .

ـ فلترفع مقتك عنا .
حطت فوقه العيون .. تألموا .. قال لهم :

ـ يا رجال .. قفوا .. قولوا شيئا .

زاحوه بأطراف العيون الغاضبة والضغائن .

ـ أنت أحسن منا ؟

باق هو .. تجنبته العيون وانغرست فى الثمرات .

ـ نريد أن نرى مثلك .

ابتسم البائع .. انفرج حلقه .. انبثق منه دخان .. كان بالحلق كل العيون المتطلعة .. قال :
ـ كم كيلو ؟

عند يافطة العربة .. يتهدم عرف الحارة .. يخرج النائم على نقود الزمن الآتى مجهولة الهوية نقوده .. تتقدم بالنشـــوة النسوان .. يحاولن ابداء القيمة المالية فى خطوة القرب من العربة للأخريات الساهمات .. يشترين التفاح .. يتبخترن بثوب النوم الكالح فى الخطوات الفاصلة بين العربة والبيت .. ترمق العيـون وتخسف عيون .. وتغض الغيرة المخبوءة للأرض عيون .

فى المواجهة كان .. ناظـرا فى الحلق لما اتسع .. رآهم هناك جالســين . صفين متجاورين يعلو رءوسهم الغبـار واللون المصفر الداكن .. متفرقون .. تصدر عنهم روائح العفن الجوفى .. يلفهم صمت غريب .. قال له :

ـ أنا لا أريد تفاحا ٠٠ أريدك فقط أن تذهب عن الحارة ٠٠

ابتلع البائع أسنانه والقاعدين ٠٠ زاحه البائع جانبا ليبيع للقادم الجديد ٠٠ بدت الصفوف القاعدة نشوانة ٠٠ قال للرجل وهو يخرج حافظته :

ـ أرجوك ٠٠ أرجع نقودك ٠

نظر فيه الرجل ٠٠ أصلعا كان وناشفا جلده ٠

ـ لماذا ؟

ـ لأني لن آكل تفاحا ٠

ـ أنا اشترى تفاحا لأولادى ٠٠ ليس لك ٠

ـ وأنا لم آت بتفاح ٠

ـ وأنا مالى ومالك ؟

ـ يجب أن تراعى حقوق الجيرة ٠

ـ خلاص خذلك كيلو على حسابى ٠

ـ أنا لا أنتظر صدقة من أحد ٠

ـ اذن حل عنى ٠

زاحه البـائع المبتسم فى غيظ مكتوم ٠٠ هز المشترى رأسه قال :

ـ حقـد ٠

ـ ٤ ـ

خبط الباب ٠٠ تركوه معلقا من رأسه ولم يفتحوا ٠٠ تناهى الى سمعه صوت تحركاتهم بالداخل ٠٠ قال فى نفسـه والشمس فى التلافيف تلتهب ٠

لابد من حربهم · وطرد البائع ·

أعاد الخبط ·· تململوا بالداخل ·· راحوا يتحدثون صوت عال فى أمور عادية لم تكن تخصه ·

أحس بأنهم يفرزون كبتهم فى الضحكات ·· خبط الباب ·· فتح عن شقيق الزوجة ·· نظر فى ذراعيه المعلقتين فى أكتافه الساقطة ·· لكمه وأغلق الباب ·· فقد توازنه ·· انزلق متدحرجا ·· حتى اذا تلقفته البسطة ·· قال فى نفسه ربما مغتاظين لعدم امتثالى لهم ·· صعد الدرج ·· خبط الباب ·· مرة وقبل الأخرى ·· فتح الباب ·· تلقى لكمة ودفعة من ذراع حماته ·

ـ يا أخى اذهب عنا ى ى ى ى ى ى ·

تلقته الدرجات ·· فالبسطة ·· قال فى نفسه ·

ـ ليست المسألة اذن مسألة تفاح ؟ فلنر ·

توكأ على تعبه وسياج السلم ·· لكن القيظ لف الرأس · انزلق ·· تلقته البسطة مرتطما فى سكون ·

تعمق فى الحارة الليل ·

كانوا يلملمون بقاياهم ·· وهن العظام من أطراف المداخل ·· يتدافعون فى طوابير منتظمة ·· زاحفين نحو العربة ·· يجثون فوق السيقان ·· يستحلبون النظر والانتظار ·· والبائع العظيم يلملم من قيعان الصناديق الكارتونية حبات التفاح العطن والمتبقى من النهار الفائت لبيعه لهم بربع الثمن ·· لمن يريد الدفع وبدون مقابل لمن لا يملك مالا ·· احتشدوا بلا مال · كان فى

المنتصف أفراد عائلته ، يلبسون الثياب المهترئة ٠٠ يغطون وجوههم بالطرح والشالات ٠٠ حين أفاق ٠٠ ترك البسطة ٠٠ وهبط مقررا هدم العربة كانوا يجثون ٠٠ يتناولون الحبات ويمشون فى نظام رتيب ٠٠ صامت ورهيب ٠ تراخى فوق دهليز البيت ٠٠ تأكل العيون المتوجسة منه فيه ٠

١٩٨٥

***

ملهوفا كان يضاجعها ·· مكسورا قلبه ·· مهموما ··
توسدت أصابعه البضة المرتعشة وجهها الأملس ··

حلو التقاطيع كان ·· يشوبه مسحة من الحزن مستكينة ··
غاص فى عينيها ولحظة انتعاش هاربة يود الامساك بها ·

فى صمت تجرع عطرها الفواح ·· وارتكن رأسه ·· لحين الفزع القادم ـ رأسها الملقى فى ألم ··

لم تعد لحظات التدانى أمنية مرجوة··ينشدها القلب المحترق، ولا ليالى الحب الطويلة الدافئة بقادرة على نسيان سنوات القحط الآتية ·· ولا الشعر المتهـدل فوق وسائد الحرير بمنساب فوق المنكبين النحيلين يغطى نصف ظهرها العارى حيث تستقبل النيل·· وقمصان نومها الشيفون تفوح برائحة العطور ··

همست وضوء المصباح الخافت يتضاءل فى العيون :
ـ سترحل ·· ؟

وأصابعه تداعب شعرها الناعم ·· قالت :
ـ ألن تبقى قليلا ·· ؟

تحركت سيقانه هابطا الفراش ·· قال :
ـ هأنت ترين ·· لم يعد فى الوقت متسع ·

نظر فى ساعته ·· تحرك بسرعة ·· تعلقت بالوجه تكشيرة ·· انطوى على نفسه وهو يلبس بنطلون البيجامة ··

نهضت واقفة ·· لمت شعرها ·· قالت :
ـ ما كنت أرغب فى ذلك الذى حدث ··

زفر فى صمت ·· مشى صوب الصالة ·· أغلق فيديو كان مفتوحا ·· تناول ماكينة حلاقة كهربائية ·· جاب بها ذقنه ·· أقبل الى الحمام ·· فتح جهاز الماء الساخن ·· فكر فى استعمال البانيو ··

لكن الوقت ضيق ·· فتح على نفسه الدش ·· استحم وخرج·

تذكر زمنا كان الجسم فيه تملؤه البقع الحمراء والنحول ·· امتص الجوف كل أعضـــائه ·· كان البطن منفــوخا ·· والصدر ممصوصا وعظمتا الوركين بارزتين وعرق ما بين أصابع القدم يفرى اللحم الأبيض الممتلىء المهترىء فى الجورب المثقوب داخل الحـــذاء البـــالى ··

موظفا كان بأرشيف مكاتب الجمرك ·· لم يمن عليه الزمن بشىء ذى قيمة ·· سوى امرأة ناصعة :

بيضــاء البشرة وأطفــال تكتلت أبدانهم الهشــة فى حجرتين وصـــالة ·

ملعون ذاك الزمن الأغبر ··

جفف بدنه ·· مشط شعره ·· وارتاح القلب قليلا ··

مرتاحا كان الزمن فى قيعان تجاويف الرأس القديم ··

ارتدى ثيابه .. لم ينس عطره .. تناول حقيبة ملابسه .. قبلته الزوجة الباكية .. احتضن أطفاله ..

أسرع الى باب الشقة ..

أمام البيت توقفت عربة جيب .. كانت تنتظره .. خرج منها شرطى .. حياه .. فتح له الباب ..

وانطلق بالعربة ..

(١)

الرجال على الرصيف .. المراكب فى الميناء .. والخشب على الرصيف ينتظر الفرج ..

صـدأت عظام الرجال المتقوعين ينظرون .. وينتظرون هـم أيضا الفرج ..

ولأن الأكواخ من الصفيح الصدىء .. والنوافذ بلا أضلاف .. والبيـوت بلا أبواب .. ونار التدفئـة فى المواقد خابية .. وريح الشتاء تلهو فى فراغ الحجرات .. تنغرس فى العظام المتناثرة فى رحاب الحارات والمتلاقية ليـلا .. تاق الرجال على الرصيف لأكل الخشب .. ومسح أصابع (المفرج) تقبيلا ..

كان يحس بأنه سيمضى ما تبقى له من عمر منكبا فوق مكتبه الصاج يوقع أذونات الافراج .. وملاحظة الرصيف والسفن القادمة .. معاينة البضائع .. حاويا فى رأسه كل الميناء .. متفرجا .. أو مقعيا بين آلاف الدفاتر والرفوف .. تأتيه المراكب من بعيد .. تحمل البضائع ..

يهبط من مكمنه فى البناية .. ينسحب كفأر خبيث ..

يحيط الرجال وهـم يفرغون السفن .. يلف ويدور حـول البضائع .. ينقب بعين خبيرة .. يحصى الصناديق والأجولة وحمولات

الخشب ·· يقيس المساحات التى تشغلها البضـاعة من الرصيف ويكتب فى دفتره ··

تراه العيون ذات البريق الحـاد وحقائب اليـد السوداء ·· يستشعرون الراحة ··

والرجال الجدد فى « الكار » يخمنون فى تساؤل عمن يكمن برأسه الأصلع الكبير ·· وخلف نظارته السلكية وذقنه النابت ·· هل فى الرأس ركن للتفاهم والملاينة ؟

أم تراه متزمتا يرزح تحت سنابك الفقر ·· ؟

والعيون البراقة فى (المخلصـين) المحنكين ·· يتمتمون فى هدوء ·· ترتفع حدقته من فوق سياج النظارة ·· ويستدير آخذا طريقه نحو البناية ··

تحمله العيون فى حب ووقار ورهبة ··

تحـويه الغرفة والدفاتر ·· يجلس فوق كرسـيه ·· يخلع نظارته ·· يمسح زجاجها المغبر ناظرا نحو الباب ··

يراه زميله الناظر فى سكون ·· وهو يجفف عرق عنقه ويدع حول العنق منديله المتسخ ··

يعبث ترقبه وانتظاره ببعض أوراق مكتبه ·· يثقب عين زميله الناظر فى سكون ··

ويأتى الرجال المحنكون فرادى ·· يملأون الكراسى المعدة ··

يدار حديث مألوف وقصير عن تعذر الشحن والتفريغ وامكانية تسهيل الأمور ·· تأخر المراكب فى البحر وتأخر الموردين ·· وبين الكلمـات وحركات الأيدى وتحريك القلم يوضـع فى السر مظروف يحث القلم على التوقيع ··

فى لحظات الفراغ من الداخلين ·· يفتح درج مكتبه ·· يرسل نظرة مقت للناظر فى سكون ··

يحصى نقوده ·· بقشيشه ·· عمولته ·· ويلعن فى نفسه كل أولئك المستوردين أو عملائهم المحنكين اللصوص ·· ونظرة زميله الناظر فى خبث وسكون ·

انه ينال من عملياتهم الكبيرة بضع نقود تافهة ··

وفى امكانه تعطيل الشحن حتى يصيب بضاعتهم العفن ··

وفى يده أيضا شغل الرصيف أو عودة مراكبهم أو ركنها فى البحر ·· لكن بذلك يعطل نفسه ··

هز رأسه مؤملا فى يوم لابد قادم يرتفع فيه نصيبه ··

تقابلت عيناه بعينى الناظر فى سكون ··

أصابته ارتجافة خفية ··

كانت السيارة الجيب حاملة رقم الشرطة تقترب من مشارف الطريق الصحراوى ·· تاركة خلفها المدينة تضج بسكانها النائمين سيرا وعماراتها الشاهقة وترامها الثقيل ··

أشعل لنفسه سيجارة ·· قدم لمن كان الى جواره واحدة ·· وللجندى السائق واحدة ··

(٢)

البحر تفترشه المراكب ·· عيناه خلف نافذته تحوى البحر والأوناش والأرصفة ·· البضـائع والرجال القاعـدون منـذ الأمس القريب ··

فى القلب كان الفراغ ·· يغترف منه ·· يغزو به أركان البيت

الضئيل والعيال ، يتطلعون الى الجيران مملوئى البطون والخدود ‥ يوزع فراغا فى قلب المرأة ذات الجمال الريفى الضائع ، متغضنا هو بفعل سنوات الجدب والفراغ وتطلعات العيـــون الخفية فى عائلة الشقيق الأكبر ، فى الجيش كان ضابطا ‥

ـ تعقيب ـ

يقول جيران الجيران ‥ أنه يرأس قطاعات هائلة ‥ يقولون ‥ على كتفه النسور تقع والسيوف تقاطع العصا ‥ تشاهده العيون فتفتخر زهوا ‥

.....

لكن قلبها الحسير ينقبض ‥ ينفرط حزنه ، حين تكون صورة عائلته تملأ صفحات الجرائد .

وحين يفرض التليفزيون عدساته على أثاث بيته الجميل ووجه زوجته ‥ يتجاذبون معهم الحديث ‥

وتنتقل عيونها خابية البريق ناظرة بدنه المطروح فوق الفراش مبعثرا ، يرســل غطيطـا مقرفا ‥ كريه الصوت من بين شفتين متلاعبتين ‥ تدفعان ذبابة أو ناموسة أو تبتلع لعابا ‥ وتغض البصر فى مقت خفى ‥

وآلات الشحن ترفع عن الرصيف البضائع ‥ تحملها لعربات اللورى ‥ تغادر الميناء الى المدينة ‥

مدينة تستقبل البضـــاعة بقلوب فرحـة ‥ وقلوب تغمرها الحسرة ‥ قلوب تلبس العمـائر ‥ تناطح العيون والرقاب ‥ وقلوب تلبس العراء والصفائح وتأكل الانتظار والحديد ‥ ويزيح الزمن زمن آت ‥

تأتى السفن ·· وتذهب ·· ولم يزل على الرصيف الخشب ·· يكاد السوس ينخره وقلبه ·· مغتاظا كان ببقاء الخشب دون اذنه ·

كل المراكب تجىء ·· تفرغ البضائع ·· وكل اللوريات تغادر الأرصفة ··

وكل الرجال الآخرين يذهبون ويعملون ·· ورجال الخشب بياتو الظل والرصيف ·· يذهبــون ليــلا ·· ويأتون صباحا ·· يسألون ·· متى تسمح ادارة (الشــونة) التى يتبعون لها بشحن الخشب ؟

ويجيب الصمت بصمت أحمق ·· وينتظرون بلا عمل ·· اقتعد كرسيه وفكر ··

ليس على أصحاب الخشب نقود ·· انهم يدفعــون أرضية المساحات المشغولة ··

اذن لماذا لا يرفعون عن الرصيف الخشب ·· ؟

لقد امتلأت به الأرصفة ·· أيمكن أن تكون « شون » ·

أصحابه قد اكتظت حتى لم يعد له مكان ؟ ·· جائز ··

لكن البيوت هناك بلا نوافذ والحجرات يمرح فيها الريح ··

الناس يصرخون لعدم توافره ·· فلماذا مركون هو هناك ؟

تحت الشمس العربة الجيب ·· تستقبل الأرض الجرداء ·· صفراء مترامية تنبت صبارا وبخارا وآمالا مذبوحة فوق هضاب ··

ممتدا فى البعيد اللسان الأسفلتى المنصهر يتلوى فى الخلف ·· وينتهى ويجىء من الأمــام قصيرا لحد مرمى البصر ·· تأكله العربات النهمة بشراهة ··

قال الرجل الجالس الى جواره للسائق :

ــ هدىء السرعة ·· العربة تكاد تنقلب ··

قال السائق :

ــ لم يعد هناك وقت ··

(٣)

ــ مضى على بضاعتك أسبوع ··

ــ نحن ندفع الأرضية ··

ــ هذا رصيف حكومى ··

ــ نحن ندفع للحكومة ··

ــ الرصيف ملك لكل السفن ·· وأنت تشغله من فترة طويلة ··

ــ المدير يعلم بذلك ··

ــ ولكنى لا أعلم بذلك ··

ــ ها أنت ذا قد علمت ··

ــ لكننى سأتخذ الاجراءات اللازمة ··

كان الرجل المهندم يعلم أن المدير يمكن أن يتراخى أمام وكيل الرصيف القانونى ··

ابتسم الرجل وقال :

ــ المخازن لدينا امتلأت ولا مكان لهذه الأخشاب ··

ــ يمكنكم توزيعها ··

ــ نوزعها ؟

ـ البلد فى حاجة اليه ٠٠

ـ ونحن فى حاجة الى المال ٠٠ والسوق مضروب أنت تعلم تكاليف الاستيراد وعمال الشحن ٠٠

ـ العمال بلا عمل ٠٠ ويمكن للعمال أن تنقلب عليك بشراسة٠

ابتسم الرجل المهندم بخبث ناظرا الى الوكيل ٠٠

أحس بأن فى استطاعته احتواء الوكيل المحنك داخل حقيبته ٠٠ قال والوكيل يكتب فى دفتره :

ـ تعال يا أخى ٠٠ نتحدث فوق ٠٠

منساقا سار الوكيل ٠٠ مبديا عدم أهمية ما سمع ٠٠

اقتعد كرسيه ٠٠ تلاقت عيناه بعينى الناظر فى سكون ٠٠

قال المهندم وهو يجلس :

ـ تعرف أن السوق مضروب الآن ٠٠ ويمكن بيع الخشب بسعر التراب ٠٠

قال الوكيل بصوت كالهمس :

ـ ولذلك تريد ركنه فوق الرصيف ؟ يمكنك تحميله وايداعه المخـازن ٠٠

قال المهندم وقد أصبح صوته هامسا :

ـ قلت لك ان المخازن امتلأت ٠٠ ولكن ٠٠ هذه البضـاعة تخص شريكى وأريد أن آخذها لحسابى ٠٠ ولا أملك سوى مخزنا واحدا مملوءا بصلا ٠٠

ـ تقصد أن هذه الأخشاب ليس لها مكان لديك ؟

ـ بالضبط ٠٠ ونريد تأخيرها حتى يرتفع سعر السوق ٠

ـ فى هذه الحالة يمكنك دفع الأرضية ·

ـ يا أخى الأرضية هى الأرضية ··

ـ لا يا أخى ·· يمكننى الاتصـــال بشريكك وهنـا تتغير الأرضية ··

ـ يا أخى ·· يا أخى ·· أقول لك ·· عشرة فى المائة من السعر ··

ـ بالسعر القديم أم بالسعر الجديد ·· ؟

ـ يا أخى أنت تفهم جيدا ·· بالسعر الجديد طبعا ··

ـ ·· لى النصف ··

ـ النصف ·· ؟

ـ النصف ··

ـ هذا افتراء ·· يا أخى ··

ـ النصف ··

ـ بالسعر القديم ··

ـ بالسعر الجديد ··

ـ هذا غير معقول يا أخى ·· ؟

ـ ممكن لشريكك المغفل أن يدفع ··

توتر الصوت بينهما ··

استنامت عينا الناظر فى سكون ·· لم يكن فى الحوار الدائر أمامه ما يمكن سمعه ·· تقابلت نظرات التحدى ·· فرك المهنـدم رأسه ·· قال :

ـ ستكون البضاعة على الرصيف أطول فترة ممكنة ؟

ـ هذا يرجع لأوامرك ··
ـ ويرجع للسوق ··
ـ وكلما غابت البضاعة على الرصيف ·· ؟
ـ ارتفع السعر فى السوق يا أخى ·· يا أخى أنت عفريت ··

ساد صمت مشحون بالقلق والتحدى ·· قال الوكيل :

ـ أنت أيضا عفريت ·· عموما ·· اتفقنا يا أخى ··
ـ لابد أن يكون شيك الاستيراد باسمى ··

اندهش المهندم قائلا :

ـ كيف ؟
ـ حين يسأل المسئولون عن البضاعة ·· ماذا أقول لهم ؟

أطرق المهندم برأسه ·· نظر فيه مليا ·· قال :

ـ اذن أعطنى ايصالا بذلك ··
ـ ايصالا بأنك شريكى ·· ؟
ـ وأن يكتب الايصال على يد محام ··
ـ المحامى موجود طبعا ·

تهادت العربة الجيب عند أول (رست هاوس) ·· توقفت ··
هبط هو يصاحبه السائق ·· اقتعدا مائدة ·· مرت لحظات شربا خلالها قهوة ·· جاء الرجل الذى جاوره العربة بحقيبته ·· أودعها الى جوار كرسيه ·· اقترب ضابط ·· حياه مصافحا صارفا الجندى والرجل ··

همس الضابط فى أذنه ·· شكره هو وحمل حقيبته ·· نهضا وسارا معا صوب سيارة ملاكى ··

استقلاها وانطلقت تطوى الأسفلت ٠٠

(٤)

طبع من أذن الصرف مائة صورة ٠٠ علقها على جدران البيت ٠٠

زين بها المقاعد والأرائك والأسرة والبراويز ودورة المياه ٠٠ غطى بها جسد الزوجة والعيال ٠٠

ذوب بعضها فى الماء وشربه فامتلأ ٠٠ سقى منها العيال حتى تجشأوا وأتخموا ٠٠ حتى اذا راق للعيال التبول ٠٠ غسلوا بالبول مدخل البيت فأصاب المدخل البريق والرونق والروائح الزكية ٠٠ دعكت الزوجة بدنها وتشربت مسامه وابتلعت شعور الأبطين والفخذين والتمعت بالماء الزلال البشرة ٠٠

انتشى القلب وابتهج ٠٠ اتسعت على الوجـه ابتسامة تحد سافرة لو طالعتها أسرة أخيها الكبير لأصابها البلل ٠٠

ـ تعقيب ـ

قال الجيران من فرط العجب :

ـ أخوها رأس كبير ٠٠

وتهامست فى العلن الأفواه ٠٠

ـ يا عم هؤلاء تأتيهم الدنيا بسرعة ٠٠ أخوها رجل كبير ٠٠

ـ لابد أن يكونوا هكذا ٠٠

ـ ولا تسألوا عن السبب ٠٠

ـ لابد وأن يكون المستوى واحد ٠٠

تفرق الرجال على البوابات ٠٠ ينظرون بأعين خبا فيها البريق٠

تلال الخشب المركون فوق الرصيف ·· ويستحلبون الصمت والانتظار ·· يقتعدون الأرض ضامين حول السيقان المنحولة أذرعا برزت فيها العروق ·· مسحوبة البطون حتى النخاع ·· يحملون رؤوسا تثاقلت بأعباء البيوت والعيال وأيدى الباعة الممتدة عبر مداخل المساكن يطالبون بحقوق شراء الخبز والجبن والفول ·· يمضغون الغيظ ويذرون النسـوة القابعات فى أركان الحجرات يتأسفن على رجال يلهو بأرزاقهم الزمن والبحر والأرصفة والتجار ··

يلمحن الأيدى ويغضضن البصر فى أبدان تلاقحت بذورها فى ليال لم يكن يحسبنها آتية بنهارات تحمل التعب ··

والتعب فى العيـــون ·· فى الأخيلة حين يفكرون فى رجـال آخرين ··

حمالو البضائع الخفيفة ·· قابعون ·· خاضعون لنظام تجار البالات والشركات ··

لكل رصيف رجال ، ولكل رجال عمل ··
كيف ينتهكون أرصفة لم تكن لهم ؟

طمست العيون الناظرة دخان عادم سيارته ·· نهضوا واقفين ·· مسرعين ·· حلقوا السيارة ··

هبط المهنـدم ·· محتقن بالدم وجهه ·· هبد باب سيارته وشق طريقه صوب الباب سيرا ··

كانت تلال الخشب تحجب عن بصره البناية ··

رفع باب المكتب ·· جالسا هو فى كرسيه ·· يهتز تحت بصر الناظر فى سكون ··

رفع عن أوراقه رأسه الكبير ·· مطبق الفم ··

قال المهندم وهاجس بالصدر ٠٠ حذرا ـــ يرعشه :

ـ ها أنذا وجدت مخزنا ٠٠

ـ مخزنا ؟

ـ سوف تأخذ حقك وتشكر ٠٠

ـ حقى ٠٠ ؟

ـ بالسعر القديم ٠٠

ـ أى سعر ٠٠ ؟

والمهنـــدم ٠٠ دارى بالرأس رعـــدة ٠٠ أيقن ما خمنه منـــذ شهر فات ٠٠

ـ الخشب يا صديقى ٠٠ الخشب ٠

ـ أى خشب ٠٠ ؟

ـ تعقيب ـ

يقول العمال فى الميناء ٠٠ يحكون فيما يحكون ٠٠ عن رجل كان فى الجمرك مهندما ٠٠ حاضرا دوما ونشيطا ٠٠ يخلص لتاجره الكبير أعماله الجمركية من أخشاب ٠٠ وأبلكاج وبضائع أخرى قد أصابه شلل نصفى مفاجىء ٠٠

مسرعة العجلات فوق الأسفلت الساخن ٠٠

يهتز رأسه الكبير فوق عنقه النحيل لا مباليا لرفيق الكرسى ٠٠ تقوقع فى نفسه والقلب بين الحين والحين ينقبض ، كلما شارفت العربة من مدخل المدينة المقبلة ٠٠

كان البخار المتصاعد يطمس معالم العمارات التى بدت من بين أصابع اليد وهى تنزع عن الشفتين السيجارة كشواهد قبور ٠٠

(٥)

قالوا فى المصلحة .. لا يمكن لموظف حكومى أن يجمع بين وظيفتين ..

فكر فى نقل الخشب من فوق الرصيف ..

فكر فى أسرته الكريمة فلا يمكن أن تكون بلا مستقبل مضمون .. الوظيفة أفضل .. وما المانع لو ترك الوظيفة ؟

تجارة الخشب أفضل .. كم من تاجر صار مليونيرا .. ؟

يمكنه تأمين المستقبل بالمال فى البنوك ..

ولكن كيف يستخرج سجلا تجاريا .. ؟

قال فى نفسه .. أكتب الشركة باسم زوجتى والأولاد ..

واستكان ..

ـ تعقيب ـ

فى مكتبه الموقر .. انتشى قلب زميله الناظر فى سكون .

أحس بأن غيمة فوق الصدر آن لها أن تنقشع ..

وأن تخلو طرقات الرصيف من أحد الآكلين فى قصاعى الحكومة ..

جحظت عيناه .. ثرثر فى نفسه وللمكتب الفارغ ..

سوف يغرب عنك .. وأكون لك ..

غمرت المرأة الفرحة والشموخ .. بسطت على الكون أنظارها فى تعجب ليس بالقوى فهى لعائلات المال والمراكز سليلة .. أخذت

بين النهدين رأسه الكبير ٠٠ ونامت فوق أوراق تحمل شركة واسما لها كان في الماضى متواريا فى قسيمة زواج أو فى شهادة ميلاد ٠٠ مطموسا كان على ألسنة الجيران ٠٠ الآن أصبح معروفا ٠٠

حين التزم المشلول فراشه ٠٠ كاتما فى القلب سره ٠٠ أتاه الرجال زائرين ٠٠ يحملون اليه شكاوى الحاجة والبطالة ضمن كلمات السلامة ٠٠٠٠ نظر فيهم ولم ينطق لسانه المرتخى ٠٠ حمل الرجال فوق المناكب بطون الجوع والبيوت ونسوة اقتعدن الدهاليز ٠٠ والغيظ ٠٠

توقفوا أمام باب مكتب التاجر الكبير ٠٠ رئيسا كان للمشلول ٠٠ ارتسمت أحزان المدينة فى العيون ٠٠

تحجرت دموع خلف المآقى ٠٠ لم تحبذ المسألة يوما ٠٠

لكن الزمن القاهر حل ٠٠

قالوا له ان وكيله شل ٠٠ وأن البضاعة فوق الرصيف باقية ٠٠ وأن آخرين يعملون وهم نائمون ٠٠

احتقن الدم برأسه واشتعل القلب ٠٠ لم يكن يعلم عن المسألة شـيئا ٠٠

أحس بأن وكيله لم يستأهل الشلل فقط ٠٠ بل الموت حرقا ٠٠ ترك الرجال أمام الباب ٠٠ ينظرون اليه وهو يتحرق مقتا ٠٠ بدت فيه سمات الغضب الوحشى ٠٠ استل من مكتبه أوراقا ٠٠ ركب عربته الفخمة تاركا لعماله (الشونة) والمكتب وانطلق ضاربا بعادم سيارته المسود وجوه الرجال ٠

توقفت العربة الملاكى على مشارف المدينة ٠٠ عند أول نقطة مـرور ٠٠

تقدم ضابط ٠٠ ألقى لسائق العربة السلام ٠٠ ولرفيق الرجل السلام ٠٠ ولكاب وضع فى ظهر المقعد الخلفى سلام ٠٠

قال الضابط فى شبه شماتة خالطها ابتسام :

ـ أهلا بكم فى القاهرة ٠٠

رد المرافق ٠٠ ولم يرد هو ٠٠

هبط المرافق ٠٠ صافح الرجل فى أدب صامت ٠٠ خرج من نقطة المرور رجلان فى ملابس مدنية ٠٠

اقتعدا جانبى الرجل فى صمت ورهبـــة وقورين ٠٠ همس الضابط فى أذن أحدهما ببضع كلمات هز الآخر رأسه فى احترام ٠

انطلقت العــربة فى هــدوء تبحث عن طريق للمرور وســط الزحـــام ٠٠

(٦)

قال التاجر الكبير لبديل رجل الرصيف المنتظر :

ـ هذه البضاعة تخصنى ٠٠ ومعى ما يثبت ذلك ٠٠

قال البديل ٠٠ والناظر فى سكون ٠٠ واثقا مما يقول :

ـ أعلم ذلك ٠٠

ـ هذا الخشب من حقى ٠٠

والناظر فى سكون خالجه شعور ببداية خلو الطريق :

ـ وهناك شهود على أن الموظف المذكور لم يكن يملك مليما ٠٠

ـ سوف أريه من أين يؤكل البنى آدم ٠٠

ـ أيضا هناك رجال يشهدون بأن هذه البضاعة لوكيلك ٠٠

ـ هذه البضاعة لى ٠٠ وسوف أنالها ٠٠ الشركة المصـدرة تعلم لمن تصدر وباسم من ٠٠

قادما كان يتمشى فى خيلاء ٠٠ انكمش البديل فى ركنه ونظر فى سكون ٠٠

انتفخ بالغيظ التاجر الكبير ٠٠ قال هو فى زهو :

ـ تقول ان البضاعة ملك لك ؟

ـ هى ملك لى وسوف ترى ٠٠

ـ ها ٠٠ وكيلك الأمين باعها لى ٠٠

ـ معى اثبات بأننى سقطت بين أيدى موظفين نصابين ٠٠

سأرفع الأمر الى النيابة وها هى البضاعة لا تزال هنا ٠٠

ضحك هو عاليا ٠٠ ضاغطا بصوته الجهور البديل المنتظر ٠٠ الناظر فى سكون ٠٠

عند تجاوز سيارة التاجر الكبير الباب ٠٠ كان الرجال يقتعدون الرصيف الخارجى للجمرك ٠٠

يستحلبون الألسـنة الجـافة والانتظـار ويسعلون من عادم سيارته الكثيف ٠٠

ـ تعقيب ـ

نشرت صحيفة الصباح الباكر فى الصفحة الأولى خبرا صغيرا عن جريمة غامضة كان ضحيتها تاجر كبير وجد مقتولا فى عقر مكتبه ٠٠ هذا وقد سرقت بعض الأموال والمستندات الهامة ٠٠

وقد تمت الجريمــة بالرغم من تواجد بعض حراس وعمــال الشــــونة ..

بين الزوج والزوجة صمت قائم .. يتحركان فى بلاهة وصمت .. يفكران فى هدوء .. ولكن بلا جدوى .. قال لها :

ـ الخشب أصبح لك ويجب أن تفكرى .. سوف ندفع أرضية أكبر ..

ـ ليت البيت يسعه ..

ـ فكرى .. الشركة باسمك ..

ـ فكرت كثيرا ..

طلبوه فى النيابة .. وجهوا اليه تهمة القتل ..

فغرفاه ودهش ..

صرخ فى وجــه المحقق بأنه برىء وأن هنــاك أناسا يحاولون الايقاع به .. والاستيلاء على ضميره اليقظ .. ومكانته ..

وحب الناس له .. قال له المحقق .

ـ تلال الخشب التى فوق الرصيف .. أليست ملكا لك ؟

ـ نعم ملكى .. اشترتها زوجتى ..

ـ الوقائع تقول أنك تحايلت على التاجر وعندما طالبك بحقه قتلته ؟

صـــــرخ :

ـ كذب وافتراء .. أنا لا أستطيع قتل ذبابة ..

ـ الخشب ما زال موجودا على الرصيف ..

ـ أين هو يا سعادة البك ؟

ـ تعقيب ـ

يقولون فى الجمرك ٠٠ ان عربات ضخمة صفراء قد جاءت أمس وعليها رجال ضخام كالوحوش حملوا تلال الخشب ٠٠ وضعوه فوق العربات دون معارضة من أحد ٠٠ واتجهوا به ناحية طريق الدخيلة تحت أنظـــار رجال كثيرين كانوا قد تقوقعوا حـول أنفسهم على الأبـواب ٠٠

العربة فوق الطريق ٠٠ مستقيما كان ٠٠ يفضى الى ميـدان مصر الجديدة ٠٠ مخترقا ميدان الاسماعيلية ٠٠

والقلب النازف دما يبكى فراق الأحبة ٠٠

(٧)

ـ تعقيب ـ

وفى الشارع يقول الجيران ٠٠ ان فلانة امرأة موظف الرصيف ان أخاها المقيم فى القاهرة له فى شاطىء العجمى فيلا كبيرة بهـا بدرومات كان يستأجرها بعض المصيفين صيفا ٠٠

قال آخـرون ٠٠ لـماذا لا يؤجرونها لأمثـالنا ما دامت خاوية شتاء ٠٠ ؟

كان المحقق الشاب يوجه اليه الأسئلة عندما أقبل ضابط يحمل رسالة تقول بأن المتهم برىء من كل ما نسب اليه ٠٠

ابتلع المحقق لسانه وجلس زائغ البصر ٠٠

قال الضابط فى أدب للرجل المبتسم فى وقاحة :
ـ هناك جواز سفر ـ أجازة مفتوحة ٠٠ عقـد عمل بخمس سنوات ٠٠ يمكنك الرحيل غدا ٠

كانت العربة تقترب من المطار ..

كان الرجال .. الباعة .. القاعدون .. قاعدين .. يراقبون الداخلين والخارجين فى صمت حزين ..

قدم لمفتش البوابة جواز سفره .. حقيبته ..

ابتسم له المفتش وأفسح له الطريق ..

١٩٨٤

★★★

هـذه المجموعة

بقلم : د. سيد حامد النساج

ليست هذه هي أول مرة يلتقي فيها الكاتب أحمد محمد حميدة بالقارىء . وان كنت أعتقد أنه بامكاننا أن ندعي أن هذه هي المرة الأولى الحقيقية التي تحظى فيهـا مجموعة قصصية له ، بوسيلة للنشر قد تتيح له فرصة الذيوع والانتشار بين الجمهرة القارئة ، من خلال سلسلة دورية منتظمة .

فقد سبق له أن أصدر ضـــمن مطبوعات القصـــة التي تصدرها مديرية الثقافة بالاسكندرية أربع مجموعات قصصـــية هي : « النبش في الذاكرة » و « الهجرة الى الأرض » و « التائهون» ورواية بعنوان : « الليل والأصـــوات » . وهي أعمال - بحكم العدد المطبوع منها ، ووسيلة الطباعة الماستر وأدوات التوزيع - لم تحظ بما تستأهله من تقويم ومتابعة ، كما أنها لم تلق رواجا لدى القارىء العام الذي يتوجه اليه الأديب بكامته أولا وقبل كل شيء . مما يدفعني الى ضرورة المطالبة بطبعها مرة أخرى ، وما قد يستلزمه ذلك من اعادة نظر فيها ، وما شابه ذلك .

ثم ما لبث المجلس الأعلى للثقافة أن أصدر له في عام ١٩٨٣ مجموعة قصصية بعنوان : « الليل والأصوات » لا أظن أنها كانت

ـ هى الأخرى ـ سعيدة الحظ ، بحكم العوامل السابقة التى أشرت اليها ٠

وتضم المجموعة التى بين أيدينا ـ الآن ـ عشر قصص هى وفاء القيظ ١٩٨٢ ـ الصندوق ١٩٨٤ ـ حاملة الصاج ١٩٨٤ ـ البنت والمربعات ١٩٨٤ ـ ركن بعيد من العالم ١٩٨٥ ـ مقتـل العريف أبو الشوارب ١٩٨٦ ـ صـديقى ذلك البعيد ١٩٨٤ ـ شوارع تنام من العاشرة ـ مسألة التفاح ١٩٨٥ ـ حمالو الخشب ١٩٨٤ ٠ وفى حرص الكاتب على تدوين تاريخ كتابة كل قصـة دليل على أنه اختار نمـاذج من كتاباته الأخيرة فى منتصـف الثمانينيات ٠ وفيه اشـارة الى المناخ الذى كتبت فيه كل قصة ، والظروف التى أحاطت بها ٠ وهى أمور يدركهـا النـاقد دون افصاح الكاتب عنها ٠

ولعل قارىء الثمانينيات لن يختلف مع مضمون قصص هذه المجموعة ، ولا مع القضايا التى أثارتها ، ولا مع الموضوعات التى تناولتها ٠ فالكاتب جاد فى أن يكون « واقعيا » معايشا لقضايا الناس ، متلمسا أسباب مشكلاتهم اليومية الطاحنة ، مجسـدا التناقضات الاقتصادية والاجتماعية الصارخة ، مبرزا تلك القوى التى تنخر فى عظـام المجتمع كالسوس ، منحازا الى تلك القوى المطحونة التى تئن تحت وطأة الضغوط المادية والأخلاقية الصارمة رافضا كل صور الاستغلال ، والقهر ، والسلب ، والاثراء الفاحش الذى يستند الى أسس غير انسانية ، وغير وطنية ، وغير أخلاقية٠ لسنا ـ اذن ـ أمام كاتب رومانسى حالم ، يتناول مسائل الحب ، والموضـوعات الخاصـة بالقلب والمحبين العاشقين ٠ كما أننا لسنا ازاء كاتب يكتب للتسلية والترفيـه ودغدغـة المشـاعر وتملق الغرائز ٠ ومن ثم فاننا لن نظفر لديه بشخصيات تنتمى الى الطبقة الأرستقراطية أو البورجوازية الجـديدة أو ما لف لفهما ٠ ولكنـا

سوف نعيش مع الخادمة الصغيرة التى تئن بحملها (حاملة الصاج) وابنة البواب التى تلعب أمام البيت فتمنع بالقوة (البنت والمربعات) والشاب الباحث عن مسكن ليتزوج فلا يظفر الا بالقيظ وصهد الأســـفلت والنيران اللاهبة (وفاء القيظ) ، والموظف الفقير البسيط الذى يتهم بسرقة صندوق من الورق كان يتهيأ ليتخذه فرشا ينام عليه هو وزوجه وأولاده (الصندوق) والشرطى الذى يحتال عليه الهازئون من اللاهين العابثين سخرية من شاربه (مقتل العريف أبو الشـــوارب) أو ذلك الحـلم الذى لا يتحقق لخادمة شابة تنتظر زوجا (ركن بعيد من العالم) ٠

ان الشخصيات التى انتقاها ، والمواقف التى اختـــارها ، تؤكد ـ جميعا ـ أنه كاتب يعيش واقعه الاجتماعى والانسانى ، ويعرف دوره جيدا ، ليس على مســتوى اقليمه فحسب ، ولكن على مستوى المجتمع المصرى كله ٠ ذلك أنه واحد من أبناء الاسكندرية الذين يجتهدون فى أن يكون لهم دور فى حركة الأدب والفن فى مجتمعنا ٠ ومن ثم فانا نلاحظ أنه لا ظل للاسكندرية فى هـذه المجموعة القصصية ٠ اللهم الا ذكر أسماء بعض الأماكن فى قصة أو فى قصتين ٠ كما أن قصة (حمالو الخشب) تدور فى الجمرك والميناء بالاسكندرية ٠ وهى ظواهر لا تنفى أنه يكتب عن قضـايا انسانية واجتماعية تهم الانســان المصرى المأزوم ، المطحون ، فى مختلف المواقع والأقاليم ، وفى المســتوى الاجتماعى الذى طال حرمانه ، وما يزال يطحن فى كل لحظة وفى كل حين !

وفى معظم القصص التى تضمها هذه المجموعة نجد الكاتب حريصا على تجسيد مواجهة من نوع ما ، بين من ينتمون الى الفئات الدنيا ، وأولئك الذين تســببوا فى حرمانهم ، أو فى ظلمهم ، لابراز نوع العلاقة بين الطبقات الاجتماعية ، والقيم الاخلاقية التى أصبحت سائدة ، والسر الكامن وراء انتشـار التفسخ الاجتماعى

والانهيار الأخلاقى وعدم التماسك بين عناصر البنية الاجتماعية ·

وأحيانا تكون هذه المواجهة بين من ينتمون الى فئة واحدة مستغلة (حمالو الخشب) · عندئذ يكون الصـــراع متكافئا ، وتكون النتيجة مدمرة للجميع · ولعل هذا هو الذى يقصـــده الكاتب · فى حين أن الصراع فى (الصندوق) و (البنت والمربعات) و (مسألة التفـاح) بين قوتين غير متكافئتين · لذا فان النتيجة النهائية تأتى فى صالح الأقوى ماديا ووظيفيا واجتماعيا ·

ففى (الصـــندوق) يدور الصراع بين الذين يسرقون كل شىء فى المؤسســة الكبيرة ، بدءا من المدير ، وانتهاء بالســـائق والشاويش ، وبين « الساعى » ببدلته الزرقاء وطاقيته الصفراء والحذاء العسكرى القديم · وقد وجهوا اليه تهمة سرقة صندوق فارغ من الورق · وهو ما يلقى ــ عادة ــ ضمن الأشياء المهملة ، لعدم استخدامه ، ولكثرة الصـــناديق الورقية · والساعى يسكن فى كوخ صغير يضم الزوجة والأولاد · يعيشون واقعـــا قاسيا لايسمح بسرقة ، ولا يشى بتطلعات أكثر من حلمهم بأن تستمر الشمس مشرقة حتى تجف ثياب الأطفال المغسولة والمنشـــورة خارج الكوخ ، وحتى يلعب الأطفـــال خـــارج الكوخ حيث يـــكون الدفء ·

والقصة قمة فى السخرية المرة من التناقضات الصارخة فى المجتمع · البسطاء يسجنون لا لشىء الا لأنهم أخذوا من المهملات ما قد يستدفئوا به ، أو ما قد يجعلوا منه سندا لحيطان أكواخهم المتهدمة · فى حين أن المدير وأتباعه يتعاونون فى افراغ محتويات الصناديق من الآلات والمعدات لحسابهم الخاص · وعندما يخيل اليهم أن « الساعى » المسكين قد سمعهم وهم يخططون للسرقة ، أو وهم يقتسمون الغنائم ، يوجهون اليه تهمة سرقة الصـــندوق الورقى الفارغ ، كى يتخلصوا منه ·

وتضرب قصة (البنت والمربعات) على نفس الوتر . وهي من القصص الجيدة في هذه المجموعة . تصوير جيد للتناقض الطبقي الصارخ ، الذي ينعكس في معاملة الأطفال بعضهم للبعض الآخر . وهي تلتقط لحظة محدودة جـــدا في حياة طفلة صغيرة هي ابنة بواب عمارة من العمارات . وهي تلعب أمام المبنى . بينما أمهـــا تقـوم بغسل السلالم . ويدور ثمـة صراع بينها وبين طفل آخر في نفس المرحلة من العمر . هو ابن صاحب العمارة . ثقيل الظل . متخم البدن . يشاكسها كي لا تلعب لعبتها المفضلة في الشارع الكبير الذي يدعى الطفل أن أباه يملكه ، وأن أباها يعمل خادما عند والده ، وأنها لاتملك شـــيئا . والطفلة لاتدرى معنى لكل ما يقول . وأمه تنظر اليه من عل معجبه بما يقول وبما يفعل . وبينما الطفلة تؤدى لعبتها يفرض نفسه ؛ فيطمس كل ما خطته لنفسها كي تلعب داخل الدوائر والمربعـات المرسومة . ثم يدور حولها بدراجتـه . ولا يلبث أن يقتحم نصفها فيطرحها أرضا . فتصاب في رأسها ، وبعدئذ يأتى بحذائه الكاوتشـوك ليمسح ما تبقى من معـــالم خطوطها البيضاء التى خطتها على الأرض . وعندما تكون له الغلبة ، ويتحقق له الانتصار ، يأخذ في اعادة التخطيط لنفســه هو ، دون مبـالاة بكل ما أحدثه بالطفلة من جرح ، ولا ما تركته فعلته في نفسيتها من آثار .

انه المالك ابن المالك ، وهي الخادمة ابنة الخادم وأمهـــا خادمة . وبما أنه يملك البيت فانه يملك الشـــارع من منطلق غريب شاذ تشيعه هذه الطبقة المالكة . اذ تتصور أنها تستطيع التحكم في كل شيء . لاتكتفى بالاذلال والاحتقـار والاســتغلال لغير المالكين ، ولكنها تتمادى فتدعى ملكية ما ليس حقا لها . ان حلم الطفلة مشروع . والشـــارع عام . لكنه يزعم ملكيته هو وأبوه . انها فوضى الاستئثار والامتلاك والاقتناص .

وقد أجاد الكاتب تصوير عالم الأطفال · واستطاع أن يقول كلمته بشكل فنى جيد ، دون خطابية أو زعيق · لذا جاءت القصة حافلة بالحيوية والحركة والتدفق · كما أن بناءها العضوى متماسك · وقد لعبت وحدة التأثير دورا فى نقل الانطباع الموحد ، وفى دفعنا الى التفكير فيما حولنا من تناقضات وصراعات وقوى وقيم ·

واذا كانت القوى المتصارعة فى القصتين السابقتين سافرة واضحة لاتخفى على أحد ؛ فان القوة الطاغية فى قصة (مسألة التفاح) قوة غير ملموسة ان صح التعبير · أو ان شئت قلت انها مجموعة النظم والقرارات والطبقات والفئات التى تجمعت فخلقت مجموعة من الاناسى تستطيع أن تشترى التفاح ؛ فى حين أن هناك مجموعات أخرى لاتملك القدرة على الاقتراب منه ، أو شرائه ، أو اتاحة الفرصة له كى يكون لونا من ألوان الطعام على مائدتها ؛ ان كانت لها — فى الأصل — مائدة · فالتفاح هنا واقع مادى ورمز فنى فى آن معا ·

وقد نجحت هذه القصة فى تجسيد التناقض الاقتصادى بين القادرين ماديا وغير القادرين · وكشفت عن الانتهازيين الذين يدفعون الآخرين الى السلب والنهب والاقدام على فعل ما يفعله البعض من أجل « التفاح » الثروة ، الكسب ، البريق · والقصة صرخة فنية جادة حادة ضد التحدى المفروض من قبل القادرين للفقراء وغير القادرين :

(يا سيدى البائع العظيم ، لسنا من خازنى المال أو جامعيه ولا خاضعون نحن لفهم ما تبيع ، فلتزحف نرجوك · ببضاعتك عن قمة حارتنا · والعيال العابثون فى لهوهم الملول · يرتقون ظهور العربات المركونة · والرجال المضعضعون يلهثون فى صمت

ويحدقون . يبتلعون الريق . والنساء فى ظل الشرفات والرصيف يزددون حسرة الزمن الخائب .. أنا لا أريد تفاحا .. أريدك فقط أن تذهب عن الحارة) لكن النصر يكون - فى النهاية - لتلك القوة القاهرة التى تقتحم داره وكل الدور ، فتفتت القيم ، وتدمر الأخلاق ، وتطمس المعالم الحقيقية للحارة ، وتبذر بذور الزيف والانتهازية والسلبية ، وتنشر العفن والفساد . فلم تعد لأحد قدرة على الاقتحام أو التغيير أو الصمود :

(تعمق فى الحارة الليل . كانوا يلملمون بقاياهم . وهن العظام من أطراف المداخل ، يتدافعون فى طوابير منتظمة . زاحفين نحو العربة . يجثون فوق السيقان يستحلبون النظر والانتظار . والبائع العظيم يلملم من قيعان الصناديق الكارتونية حبات التفاح العطن والمتبقى من النهار الفائت لبيعه لهم بربع الثمن . لمن يريد الدفع وبدون مقابل لمن لايملك مالا . احتشدوا بلا مال . كان فى المنتصف أفراد عائلته ، يلبسون الثياب المهترئة . يغطون وجوههم بالطرح والشالات . حين أفاق . ترك البسطة . وهبط مقررا هدم العربة . كانوا يجثون . يتناولون الحبات ويمشون فى نظام رتيب . صامت ورهيب . تراخى فوق دهليز البيت . تأكل العيون المتوجسة منه فيه)

كذلك فان قصته (صديقى ذلك البعيد) من القصص الجيدة فى هذه المجموعة . وفر لها الكاتب بعض عناصر القصة القصيرة الفنية . من حيث الوحدة ، والحركة ، والصراع . ولم ينس موضوعه الشاغل وهو ابراز التناقض الطبقى الصارخ . نجد كلمات البداية مرتبطة ارتباطا عضويا بكلمات النهاية . كما أن للعنوان دلالة اجتماعية وطبقية . انها مواجهة بين صديقين . أحدهما يقطن فى أحد الاحياء الراقية . بينما يسكن الآخر فى

حى فقير ، لايفصله عن الحى الأول الا شارع صغير جدا ٠ لكن زيارة كل منهما تشكل عبءا ومعاناة ٠ وقد عالج الكاتب موضوعه بشكل فنى ، من خلال الموقف ، والحوار المدبب ، المرتبط بالبناء العام للقصة ٠ بحيث جعلنا الكاتب نعيش مأساة ابن الطبقة الفقيرة منذ أول لحظه حتى كلمات النهاية : (هبطت الدرج قفزا بحجة المشاغل ٠ وأسرعت الخطى ٠ أسرعت حتى اذا جاوزت الشارع الفاصل بين الحيين ٠ خلعت جاكتتى ٠ وسرت أتخطى مناطق الوحل بقميصى المقطوع) ٠

وهنا ينبغى الاشارة الى أن قصص هذه المجموعة تأتى فى مستويين من الناحية الفنية ٠ هناك قصص استطاعت أن تقول رأيها فيما حولها من قضايا ومشكلات اجتماعية اقتصادية طبقية بالدرجة الأولى ، مع احتفاظها بأصول الشكل الفنى للقصة القصيرة ٠ بمعنى أن الكاتب كان حريصا على أن يقول رأيه بفن ٠ أن يكون واقعيا دون أن يجرى وراء الشعارات والخطب الرنانة والتعليقات السافرة الصارخة ٠ وانما من خلال انتقاء الموقف ، واختيار الشخصية ، وبناء الحدث ، والتأليف الذكى للعنوان ، والادارة الفنية الجيدة للصراع ، والصياغة الواعية للحوار ، تمكن من أن يقدم قصة قصيرة واقعية فنية جيدة شكلا ومضمونا ٠ وهذا ما قد يتلمسه القارئ فى قصص : « البنت والمربعات » و « حاملة الصاج » و « مقتل العريف أبو الشوارب » و « صديقى ذلك البعيد » و « مسألة التفاح » ٠

مع ضرورة الاشارة الى أنه فى قصته « حاملة الصاج » كان متأثرا بقصة « نظرة » ليوسف ادريس ضمن مجموعة (أرخص ليالى) ٠ كما كان متأثرا فى قصته « مقتل العريف أبو الشوارب »

بقصة « أبو الشوارب » للكاتب الكبير محمود تيمور ، مع اختلاف فى التناول والمنطلق ·

أما المستوى الثانى لقصص هذه المجموعة فانه يضم قصصا واقعية ، كانت رؤية الكاتب فيها واضحة ، وكان الموضوع اجتماعيا، مما يدل دلالة قاطعة على معايشة الكاتب لقضايا النـــاس والواقع الاجتماعى فى الثمانينيات · لكن البناء الفنى لهذه القصص لم يكن فى مستوى المضمون الاجتماعى ·

فقد غلب الموضوع على الشكل ، أو غاب الشكل الفنى وتوارى خلف الموضوع الاجتماعى · ويلاحظ ذلك بوضوح فى قصص : « حمالو الخشب » و « ركن بعيد من العالم » و « شوارع تنام من العاشرة » و « وفاء القيظ » و « الصندوق » ·

هناك قصص طال فيها الحوار الى الحد الذى ألغى دوره الفنى فى البناء الهندسى للقصة ، وأضعف الحركة ، وجعل الصراع ضعيفا فاترا ، بحيث لم يعد له تأثير · قصة (الصندوق) تبدأ بحوار بين الساعى والشرطى ، ثم يطول الحوار لدرجة تكاد تسم القصة كلها بأنها قصة حوارية · ومعروف أن الحوار عنصر من مجموعة عناصر تشترك فى البناء الكلى ، وليس العنصر الوحيد · قد يكون ضروريا لازما فى القصة القصيرة · ومن الممكن الاستغناء عنه دون أن يحدث ذلك تأثيرا ملحوظا فى القصة القصيرة · لكن أن تتحول القصة القصيرة من موقف حوارى واحد ، الى مجموعة مواقف حوارية متكررة ، فان هذا ما لا تقبله طبيعة القصة القصيرة الفنية · كان بامكان الكاتب الاستعانة بالحوار ــ قليلا ــ وليس كثيرا كما هو واضح فى هذه القصة ·

المأخذ نفسه من الممكن أن يؤخذ على قصة (وفاء القيظ) التى نجد الكاتب فيها يعتمد اعتمادا كليـــا على الحوار بين البطل

والبطلة · لقد طال الحوار الى الحد الذى جعل القصة تطول ، وتبدو فيها الحركة بطيئة · بل ان هذه القصة لو أعيدت صياغتها لكتبت فى ربع حجمها الحالى ·

كذلك الحال ، فان قصة (ركن بعيد من العالم) طالت الى حد ما · اذ ان الموقف فى هذه القصة ينبغى أن يكون مكثفا ومضغوطا · حقا ، انه ضرب على نفس الوتر · التقاط شخصية خادمة من القاع ، تحلم حلما طبيعيا انسانيا بأن يأتى ابن عمها المسافر ليتزوجها · وقبل ذلك كله فانها تنتظر منه رسالة ، لذا فانها خصصت لرسالته صندوقا · وأخذت تتابع ساعى البريد طويلا · لكن الرسالة لا تصل ، وكذلك ابن العم ·

وهو ينتقى لحظات من حياة الخادمة الشابة ، وأعطانا صورة كاملة عن علاقتها بأمها ، وبطفلى مخدومتها · لكن الذى ينبغى التنبه اليه هو أن الكاتب جعل القصة تبدو كما لو كانت حافلة بآلاف الأشياء والتفصيلات والجزئيات ، فجاءت الحركة بطيئة . لدورانه الطويل حول « اللحظة » ولتكرار وصف مشاعر الانتظار والانفعالات المصاحبة ، مما كان القارىء قد شبع به منذ اللحظة الأولى للقصة ؛ فى كلمات البداية ، فاذا بالقصة تقوله أكثر من مرة .

وتعتبر قصته (شوارع تنام من العاشرة) هى الأخرى من القصص الطويلة ، التى يمكن تكثيفها رغم الحيوية التى قد تتسرب فى ثناياها ·

أما قصة (حمالو الخشب) فانها أطول قصص هذه المجموعة حجما بلا داع · كل ما قيل حول الصراع والتناقض ، والرشاوى ، والسمسرة ، وكبار التجار ، ومراكز القوى والتلاعب ، وسكان الأكواخ المصنوعة من الصفيح الصدىء ، والنوافذ التى بلا أضلاف ،

والبيوت التى بلا أبواب ، والعمولات ، وتقلب السوق ، كل هذا يمكن أن يقال بشكل فنى موجز جدا ، ومكثف . وبعدد أقل من الشخصيات . ودون تعقيب من الكاتب . ومن غير هذه النهــايات السينمائية التى حفلت بها السينما المصرية . لقد اعتمدت القصة على القطع السينمائى والتليفزيونى . وكثيرا ما كان الكاتب يعقب تعقيبا مباشرا لشرح موقف أو لابداء وجهة نظره الخاصـــة باسم الجماعة أو الناس أو أهل الحى . مما لم يكن ثمة ما يدعو اليه ، اذ أن طبيعة القصة تستلزم التلميح ، والاشــــارة ، والايعاز ، والتضمين . بعيدا عن المباشرة والافصاح والايضاح ، ثم ان الانتقال الـكثير من مكان الى مـكان ، ومن موقف الى موقف ، مع كثـرة الشخصيات بهذا الشكل اللافت للنظر ، يبعد القصة القصيرة عن التأثير المطلوب ، واحداث الانطباع المحدد . وثمة مسألة لابد من الوقوف عندها ونحن بصدد التقديم لهذه المجمـــوعة . تلك هى أهمية البناء اللغوى السليم والصحيح . ان الأخطـــاء التى تبدو بسيطة وصغيرة ، تعيب الكاتب الفنان الذى يهيىء نفسه لكى يتبوأ مكانا مرموقا متميزا . كما أن الضرب باللغة وقواعدها عرض الحائط ليس أمرا مطلوبا ، تحت أى دعوى أو مذهب أو اتجاه . باسم التجديد ، أو الانشغال بالفكرة والمضـــمون ، أو تحطيم الأبنيــة القديمة .

الادعاء بكفاية الفكرة ، والتستر وراء مكانة الكاتب ، أمـــور مرفوضة ، لأن القصة القصيرة بناء فنى يستلزم تصميما وهندســة ودقة واختيارا فى كل عنصر من عناصر هذا البناء . فى الرؤية وفى الحدث . وفى الشخصية . وفى الموقف . وقبل هذا وذاك ، فى مفردات اللغة ، وفى كلماتهــا ذات الدلالات المعينة والموحيــة . اذ « اللغة » هى الأداة الوحيدة التى يتوسل بها الكاتب لتوصيل فكرته وانطباعه وتأثيره فى القارىء . هى التى تحمل عنه مهمة كل ما يريد

توصيله للقارىء المتلقى • ونحن نرى أن تكون « الكلمة » وسيلة لا غاية • بشرط أن تكون هذه الوسيلة صحيحة قادرة على أداء دورها، بالطريقة التى لا يمكن أن تشاركها فيها أية وسائل أخرى بالغة ما بلغت •

ومسألة الاستناد الى مصحح محترف مسألة غير مقبولة فى الأدب وفى الفن ، لأن موهبة الكاتب ، وشخصيته ، وتفرده ، وفكره ، تكمن — جميعا — فى « الكلمة » فى « اللغة » التى يستخدمها ويشكلها ويملكها • بل قل ان فنه الحقيقى يكمن فيها • ولا شىء يبرر ضعف اللغة ، وعدم استقامتها • لأنها ظواهر سالبة تفسد الايقاع ، وتقف ضد سريان الانطباع والتأثير فى نفس القارىء ، وقد تحول دون المعنى المقصود ، والرأى المراد •

واذا كانت الكتابة معاناة متصلة ودائمة : مع الواقع ، ومع الموضوع ، ومع الشكل الفنى • فليس اقل من أن توضع « الكلمة » « اللغة » فى الاعتبار ، لكونها جزءا من النسيج الفنى للقصة القصيرة • وانها لا تحتاج الا الى مراجعة دقيقة ، واعادة نظر فى التركيب ، والمام بالقواعد الأساسية التى يدرسها طالب العلم فى مرحلة ما قبل الجامعة • ونحن لا نطالب بالتقعر والتعقيد ، ولكنا نفترض الصحة والسلامة فى البناء والتركيب ، حتى لاتقف « اللغة » حجر عثرة فى البناء المنسجم المتوافق •

ومن ثم فانى لا أغفر — فى هذه المجموعة — بعض الأخطاء التى قد تبدو بسيطة ، لكنها فى مجموعها تشكل ظاهرة دفعت الى الوقوف عندها •

● فى قصة (الصندوق) يقول : « صندوقا قديما فارغا » وصحتها « صندوق قديم فارغ » • ويقول : « هذا اعترافا منك بأنك

سرقته » والصحيح : « هذا اعتراف » . ويقول : « ليمشون عليها» والصحيح « ليمشوا عليها » . ويقول : « أيوجد لكل هذه الصناديق أصحابا ؟ » والصحيح : « أيوجد لكل هذه الصنـاديق أصحـاب . ويقول : « الأدلة وشهود العيان يثبتون بأنك مذنبا » والصحيح أنك مذنب .

● وفي قصة (حاملة الصاج) يقول : « وصهد الأسفلت في الأقدام مغروسا . فترفع الكعبان حينا » والصحيح « مغروس » ، « فترفع الكعبين » . ويقول : « تأتي بها برفقة أخوها » والصحيح : أخيها . ويقول : « وتفرك عيناها » والصحيح : عينيها . ويقول : « فربما يستيقظ منها شيئا » والصحيح : شيء . ويقول : « ربما هناك نقصانا » والصحيح : نقصان .

● وفي قصة (ركن بعيد من العالم) يقول : « في الزاوية ركنا فارغا » وصحتها : في الزاوية ركن فارغ . ويقول : « وجهك مستديرا كقرص القشدة » والصحيح : « وجهك مستدير » . ويقول : « لم يمسه في العمر أحدا » والصحيح : أحد . ويقول : « ان خداها ملتهبان » والصحيح : ان خديها ملتهبان . كما يقول « أكبيرا هو الآن » و « آله شاربا ولحية » و « كانت تحس أنه مهذبا ونظيفا » و « تجوب الأرصفة بعيناها » و « في غياب السيدان » و « ليل اليوم هادئا » .

● وفي قصة (مقتل العريف أبو الشوارب) يقول : « انه شرطيا بحبوحا » و « أتاه واحدا بصندوق سجائر » .

● وفي قصة (صديقي ذلك البعيد) يقول : « لما أنت متوتر » و « لكنه جديدا » و « لما أنت مرهوبا » و « الحد الفاصل بين الحيين شارعا » و « في كل باب عينا سحرية » .

● وفى قصة (حمالو الخشب) يقول ـ مما لا يغتفر ـ « ان البضاعة ملكا لك » و « هى ملكا لى وسوف ترى » و « وهناك رجالا يشهدون بأن البضاعة لوكيلك » و « كان ضحيتها تاجرا كبيرا » ٠ الى غير ذلك مما لا سبيل الى حصره ، ومما أثق فى أن الكاتب قادر على تجاوزه ، وهى كما ترى مسائل تتعلق بالمبتدأ والخبر ، وبالمفعول به عندما يكون مثنى ، وباسم كان وخبر ان ٠ وليست مرتبطة بمشكلات لغوية اختلف حولها النحاة وعلماء اللغة ٠ لذا فانه يصبح ميسورا لدى الكاتب تجاوز مثل هذه الهنات ٠ لو أنه وفر للغة الفنية جانبا من اهتمامه ودراسته ، ولو أنه أعاد النظر فى لغته مرات ومرات قبيل أن يدفع بالقصة القصيرة الى المطبعة ، وألا يصطنع صنيع الصحفيين الذين يعتمدون على المصحح أو المراجع أو من شابه ذلك ٠ فالأديب كلمة ، والكلمة نسيج وبناء فنى ٠ ولكى تقال الكلمة الموضوعية بشكل مؤثر وفعال وممتد ، ينبغى أن تكون سليمة صحيحة ، لا خلل فيها ولا ضعف ولا مرض ٠ اذ كيف نطلب من المريض العليل أن يشفى الآخرين ٠ أو كيف يتأتى لنا أن نطلب من انسان مختل البناء والتركيب ، مهزوز القوى والأعصاب ، أن يؤثر ويقود ويوجه فيما هو ضعيف فيه ؟!

اشراقات أدبية

العدد الثانى : باب الريح تأليف : نبيه الصعيدى
دراسة : د٠ عبد الحميد ابراهيم

فى أعدادنا القادمة

حكاية عروسة البحر	حجاج الباى	د٠ يسرى العزب
الدم وشـــجرة التوت الأحمر (القبو)	محمد عبد الله عيسى	أ٠ محمد محمود عبد الرازق
وقائع موت الجياد	عصام الغازى	أ٠ مجاهد عبد المنعم مجاهد
خيبة الشاطر حسن	عبد المنعم الباز	د٠ محمد حسن عبد الله
قصاصات حب	اسماعيل على	أ٠ محمد قطب
نقوش الدم	رجب سعد السيد	أ٠ محمد السيد عيد
الصعود الى القصر	مصطفى الأسمر	أ٠ سامى خشبة
حكايات الديب رماح	خيرى عبد الجواد	أ٠ ادوار الخراط
تاريخ يؤرقة الظما	مشهور فواز	د٠ أنس داود
مهزلة عائلية	جمعة محمد جمعة	أ٠ جلال العشرى
بقايا انتظار	عبد الفتاح منصور	د٠ عبد القادر القط
تاملات فى وجه ملائكى	عبد الله السيد شرف	د٠ يسرى العزب
٠٠ والفجر	جمال التلاوى	د٠ محمود الحسينى

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٥٣٤٧

ISBN _ ٩٧٧ _ ٠١ _ ١١٣٨ _ ٤